وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي ، أم البواقي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية **المستوى: السنة الأولى**

ماستر تاريخ

قسم العلوم الإنسانية **تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط**

مقياس التاريخ السياسي للمغرب الإسلامي

مطبوعة بيداغوجية منجزة لمستوى السنة الأولى ماستر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إعداد: د. فضيل بوالصوف

الموسم الجامعي: 2025-2026

مقدمة:

يُعد تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من أكثر الحقول المعرفية تعقيداً وثرَاءً في التاريخ الإسلامي العام، فقد شكّل هذا المجال الجغرافي الواسع -الممتد من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وصولاً إلى الأندلس شمالاً- مسرحاً لتفاعلات سياسية، سوسيولوجية، ومذهبية فريدة، صاغت هوية المنطقة ورسمت ملامحها الحضارية التي لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم، ولم يكن الغرب الإسلامي يوما مجرد "هامش" تابع لمركز الخلافة المشرقية، بل تحول بفضل ديناميته الداخلية إلى "مركز" موازٍ، أنتج إمبراطوريات عظمى، وصدّ تيارات جيوسياسية عاتية، وساهم بقسط وافر في إثراء الحضارة الإنسانية.

تأتي هذه المطبوعة البيداغوجية، الموجهة لطلبة السنة الأولى ماستر (تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط)، لتُقدم مقاربة نقدية وتحليلية شاملة لمسار تطور الكيانات السياسية في المنطقة، وقد تم تحريرها وفق منهجية كرونولوجية (زمنية) وموضوعية صارمة، تتجاوز السرد النمطي للأحداث لتغوص في عمق الإشكاليات التاريخية؛ مستندة في ذلك إلى أمهات المصادر التاريخية والجغرافية، ومستلهمة نظريات العمران الخلدوني في تحليل آليات قيام الدول وسقوطها.

لضمان الانسجام البيداغوجي، تم هيكلة مادة هذه المطبوعة عبر محطات مفصلية كبرى:

- مرحلة الفتوحات وتأسيس الولاية الإسلامية: وهي المنطلق الأساسي لدراستنا، حيث نستهل المطبوعة بتحليل استراتيجيات ومراحل "الفتح الإسلامي لبلاد المغرب" وامتداداته نحو "الفتح الإسلامي للأندلس"، ثم ننتقل لتدارس "عصر الولاة"، وهي المرحلة التي أرسَت الدعائم الإدارية والاجتماعية الأولى، وشهدت الإرهاصات المبكرة للتمرد ومخاض الانفصال عن المركز المشرقي.
- المرحلة التأسيسية ومخاض الانفصال: حيث استعرضنا "إمارات التأسيس المبكر" (سجلماسة، ناكور، برغواطة)، وكيف وُظف التباين المذهبي (الخارجي والبدعي) كأداة لتحقيق الاستقلال. ثم انتقلنا لدراسة النماذج التي زاوجت بين الشرعية الدينية والولاء (الدول العلوية كالأدارسة والسليمانيين، ودولة الأغالبة السنية).
- عصر الخلافة الكبرى والتجاذبات الإقليمية: بتسليط الضوء على الزلزال الفاطمي الذي اقتلع الكيانات القائمة، ومسار الدول الصنهاجية (الزيرية والحمادية) التي ورثت حكم المنطقة وتكيفت مع ظاهرة "الزحف الهلالي."

- عصر الإمبراطوريات العظمى وتوحيد العدوتين: من خلال دراسة التجربتين "المرابطية" و"الموحدية"، اللتين جسدتا أقصى درجات النضج الجيوسياسي بتوحيد المغرب والأندلس تحت راية مركزية واحدة.
- عصر دول الوراثة وتجذر الكيانات الإقليمية: بختام المطبوعة مع الدول الثلاث (الحفصية، الزيانية، والمرينية)، التي تقاسمت الإرث الموحدي، ورسمت بصراعاتها وصمودها الحدود الجيوسياسية الكبرى للمنطقة قُبيل ولوج العصر الحديث.

إن الغاية الأسمى من هذا التصميم الأكاديمي ليست مجرد تزويد الطالب بالمعلومة الموثقة، بل بناء "عقله النقدي"؛ ليكون قادراً على تفكيك النصوص، واستيعاب تفاعل "العصبية القبلية" مع "الدعوة الدينية"، وفهم كيف تصنع الجغرافيا والتجارة موازين القوى السياسية عبر التاريخ.

المحور الأول: مرحلة الفتوحات وتأسيس الولاية الإسلامية

المحاضرة 01: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب (الدوافع، المراحل، والصعوبات)

1. أهداف المحاضرة:

- إدراك الدوافع الاستراتيجية والدينية التي حركت الفتوحات نحو الغرب الإسلامي.
- التمييز بين المراحل الكرونولوجية للفتح (الاستطلاع، الاستقرار، صد المقاومة، إتمام الفتح).
- تحليل أسباب استغراق عملية الفتح لفترة زمنية طويلة (حوالي 70 سنة) مقارنة بفتوحات المشرق.

2. مقدمة:

لم يكن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب مجرد امتداد عفوي لحركة الفتوحات في المشرق ومصر، بل كان ضرورة استراتيجية أملاها الواجب الديني في نشر الدعوة، والهاجس الأمني المتمثل في حماية الحدود الغربية لمصر الإسلامية من الغارات البيزنطية المتحالفة مع بعض قبائل البربر. وقد اتسمت عملية الفتح بالتعقيد والبطء نظراً لصعوبة التضاريس وشراسة المقاومة المحلية، مما جعل المؤرخين يقسمونها إلى مراحل متمايزة.

3. العناصر الأساسية:

أولاً: الدوافع والغارات الاستطلاعية الأولى (22 هـ - 50 هـ)

بدأت شرارة الفتح بعد إتمام فتح مصر على يد عمرو بن العاص، الذي أدرك أن أمن مصر لن يتحقق إلا بتأمين جهتها الغربية (إقليم برقة وطرابلس). فتوجه سنة 22 هـ / 642م نحو برقة وصالح أهلها على الجزية، ثم وجه عقبة بن نافع الفهري لاختراق فزان (جنوب ليبيا) لتأمين مسالك الصحراء. وقد أورد ابن عبد الحكم هذه البدايات قائلا: "*فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية*[1]". ومما يلاحظ على هذه المرحلة أنها اقتصرت على الغارات السريعة (حملات عبد الله بن سعد بن أبي السرح ومعركة سبيطلة 27 هـ، التي انتصر فيها المسلمون وقُتل فيها جرجير) دون نية الاستقرار المباشر[2]، وهو ما يُعرف في الأدبيات التاريخية بـ "مرحلة الاستطلاع أو جس النبض."

---

[1] عبد الرحمان ابن عبد الحكم، *فتوح مصر والمغرب*، سلسلة الذخائر 22 (الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1999)، ص 229.

[2] حسين مؤنس، *فتح العرب للمغرب* (مكتبة الثقافة الدينية، د.ت)، ص 98.

ثانياً: مرحلة التأسيس والاستقرار (50 هـ - 64 هـ)

شهدت هذه المرحلة تحولاً جذرياً في الاستراتيجية العسكرية بفضل القائد عقبة بن نافع، الذي أدرك أن الاعتماد على الغارات المتقطعة لا يحقق وجوداً دائماً للإسلام في المنطقة. فقرر تأسيس قاعدة عسكرية وإدارية تكون منطلقاً للجيوش ودرعاً واقياً من ارتداد القبائل. ففي سنة 50 هـ / 670 م، أسس عقبة مدينة "القيروان". ويصف ابن عذاري المراكشي هذا الحدث المفصلي مبيناً الدافع الاستراتيجي: *"قال عقبة: إن إفريقية إذا دخلها الإمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر"*[1]. ومن هذه القاعدة، انطلق عقبة في حملته الكبرى الشهيرة التي وصل فيها إلى شواطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) بالمغرب الأقصى.

ثالثاً: استكمال الفتح الإسلامي ووضع أسس الدولة في بلاد المغرب

لم يكن الفتح يسيراً، فقد واجه المسلمون مقاومتين شرستين: البيزنطيين في السواحل، وقبائل البربر في الدواخل. تجلت المقاومة البربرية أولاً بزعامة "كسيلة" الذي استغل تذمر بعض القبائل من سياسة عقبة بن نافع، فكمن له في "تهودة" (قرب بسكرة حالياً) وقتله سنة 64 هـ[2]، مما أدى إلى انسحاب المسلمين مؤقتاً من القيروان. وبعد استعادة القيروان، برزت مقاومة أعنف قادتها زعيمة قبيلة جراوة البُترية المعروفة بـ"الكاهنة" في جبال الأوراس، والتي ألحقت هزيمة قاسية بحسان بن النعمان في بدايات حملته، وأجبرته على التراجع إلى برقة لعدة سنوات قبل أن يعود ويقضي على ثورتها سنة 82 هـ[3].

أما من الناحية الإدارية والعمرانية، فلم يقتصر دور حسان على الجانب الحربي، بل امتد لوضع اللبنات الأولى للتنظيم المؤسساتي لولاية إفريقية، حيث قام بخطوات استراتيجية أهمها تأسيس "مدينة تونس" بالقرب من أطلال قرطاجنة لتكون قاعدة بحرية، وأنشأ بها "داراً للصناعة" (مرفأ لبناء السفن) لحماية السواحل من الغارات البيزنطية المضادة. وفي الجانب المالي والإداري، يجمع المؤرخون على فضله في تنظيم هياكل الولاية، كما أورد ابن عذاري المراكشي في بيانه قائلاً: *"واستقامت بلاد إفريقية لحسان بن النعمان،*

---

[1] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ط3، تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال (دار الثقافة، 1983)، ج3، ص 19.

[2] حسين مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس* (دار الرشاد، 2000)، ص 46.

[3] ابن عبد الحكم، *فتوح مصر والمغرب*، ص ص 270-271.

فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[1]. وبهذه الإجراءات، أرسى حسان بن النعمان القواعد الصلبة التي مهدت لولاية موسى بن نصير وحركة الفتح نحو الأندلس

رابعاً: جهود موسى بن نصير في استكمال الفتح والتنظيم الإداري (86 هـ - 90 هـ)

أدرك موسى بن نصير بحنكته أن السيطرة العسكرية وحدها لا تكفي لاستقرار المغرب المترامي الأطراف. لذلك، تبنى سياسة استقطاب زعماء البربر وإشراكهم الفعلي في الإدارة والحكم بعد إسلامهم، وكان أبرز مثال على ذلك تعيينه للقائد طارق بن زياد (وهو من أصول محلية) والياً على طنجة وما والاها[2].

ولم يكتفِ ابن نصير بالجانب العسكري، بل اصطحب معه في حملاته عدداً من التابعين والعلماء لتعليم السكان الأصليين مبادئ الإسلام، واللغة العربية، والقرآن الكريم. هذا الأسلوب السلمي والتعليمي هو ما جعل الإسلام يترسخ في قلوبهم، فتحولوا من قبائل متمردة إلى أشد المدافعين عن حمى الإسلام والمسلمين.

ولتحقيق الاستقرار المطلوب، قام موسى بتأمين السواحل المغربية من هجمات الأسطول البيزنطي المستمرة، وأعاد تنشيط "دار الصناعة" (الترسانة البحرية) في تونس لبناء السفن[3]، مما عزز القوة الاقتصادية والعسكرية للولاية الجديدة.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الاستقرار الداخلي، والدمج الناجح للسكان في الجيش الإسلامي، هو توجيه هذه الطاقة الهائلة نحو الخارج. فنجد أنّ جيش الفتح الذي عبر المضيق نحو الأندلس لم يكن جيشاً عربياً قادماً من المشرق، بل كان في أغلبيته الساحقة جيشاً من مسلمي المغرب حديثي العهد بالإسلام.

4. الخلاصة:

استغرق فتح بلاد المغرب أكثر من نصف قرن، تخللته انتصارات ونكسات. ولم يكتمل الفتح عسكرياً إلا بعد أن ترافق مع الاستيعاب الاجتماعي والثقافي للبربر، الذين تحولوا من قوة معارضة إلى القوة الضاربة الأساسية التي حملت راية الإسلام نحو أوروبا (الأندلس).

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

---

[1] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج1، ص 38.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، م6، تحقيق خليل شحادة (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ص 144.

[3] أحمد مختار العبادي وسيد عبد العزيز سالم، *تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس* (دار النهضة العربية، 1969)، ص 34.

1. كيف تفسر استغراق الفتح الإسلامي لبلاد المغرب قرابة 70 عاماً مقارنة بسرعة فتح الشام وبلاد فارس؟
2. ما هي الأهمية الاستراتيجية لتأسيس مدينة القيروان في سيرورة الفتح؟
3. قارن بين أسلوب عقبة بن نافع وأسلوب موسى بن نصير في التعامل مع القبائل المحلية.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.* م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. ابن عبد الحكم، عبد الرحمان. *فتوح مصر والمغرب.* سلسلة الذخائر 49. الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1999.
3. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.* 3 ط. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
4. مؤنس، حسين. *فتح العرب للمغرب.* مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.
5. مؤنس، حسين. *معالم تاريخ المغرب والأندلس.* دار الرشاد، 2000.
6. مختار العبادي، أحمد، وسيد عبد العزيز سالم. *تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس.* دار النهضة العربية، 1969.

المحور الأول: مرحلة الفتوحات وتأسيس الولاية الإسلامية

المحاضرة 02: الفتح الإسلامي للأندلس

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب العلاقة الاستراتيجية بين استكمال فتح المغرب وبداية فتح الأندلس.
- تحليل الظروف السياسية والاجتماعية التي سهلت عملية الفتح (تدهور الحكم القوطي، طلب المساعدة من الكونت يوليان).
- تتبع مسار الحملات العسكرية الرئيسية (طريف، طارق، موسى) ونتائجها الجيو-سياسية.
- إدراك التحول الذي طرأ على الأندلس من "تخوم" إلى "ولاية" تابعة للخلافة الأموية.

2. مقدمة المحاضرة:

لم يكن فتح الأندلس حدثاً منفصلاً، بل كان الامتداد المنطقي والاستراتيجي للجهود التي بُذلت لفتح المغرب الإسلامي وتثبيت دعائم الإسلام فيه، خاصة بعد تأسيس قاعدة القيروان وإخضاع المغرب الأقصى. شكلت الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) بثرائها وموقعها الاستراتيجي، بالإضافة إلى ضعف الحكم القوطي فيها واستعانة بعض أطراف النزاع القوطي بالمسلمين، فرصة مواتية لموسى بن نصير لإتمام رسالة الفتح وتأمين حدود ولايته الجديدة من الشمال، مما فتح فصلاً جديداً وحافلاً في تاريخ الغرب الإسلامي وأوروبا.

3. العناصر الأساسية:

أولاً: ظروف ودوافع الفتح

تزامنت الرغبة الإسلامية في التوسع ونشر الدعوة مع تدهور سياسي واجتماعي عميق في مملكة القوط في الأندلس. فقد كانت المملكة غارقة في صراعات داخلية على السلطة (بين الملك لذريق "Roderic" وأبناء الملك السابق غيطشة) واضطهاد ديني واجتماعي لليهود والفقراء. في هذا السياق، تذكر المصادر أن الكونت يوليان "Julian" (حاكم سبتة وطنجة)، الذي كان على صلة وثيقة بالقوط، قدم مساعدته لموسى بن نصير لتسهيل عبور المسلمين

للانتقام من لذريق (لأسباب شخصية وسياسية)[1].وفي هذا السياق يورد ابن عذاري نصا بقوله:*"فداخله طارق حتى صار معه إلى الرضى، ووعده يُليان بإدخاله إلى الأندلس"*[2]. وقد حصل موسى على إذن الخليفة الوليد بن عبد الملك بشرط اختبار الجزيرة بالسرايا أولاً لخطورة العبور[3].

ثانياً: حملة طريف بن مالك (91 هـ / 710 م)

تنفيذاً لشرط الخليفة، وجه موسى بن نصير سرية استطلاعية بقيادة طريف بن مالك (بربري أسلم وحسن إسلامه) في رمضان سنة 91 هـ حيث عبر طريف على رأس 400 جندي و100 فارس، ونزل في جزيرة سُميت باسمه "جزيرة طريف"، فغنم ورجع سالماً بالمال والأسرى[4]، مما أكد هشاشة الدفاعات القوطية وشجع على الحملة الكبرى.

ثالثا: حملة طارق بن زياد ومعركة وادي لِكّة (92 هـ / 711 م)

في شعبان 92 هـ (أو رجب على اختلاف الروايات)، جهز موسى بن نصير حملة كبرى قوامها 7000 جندي (معظمهم من البربر الذين أسلموا حديثاً وتدربوا على يد طارق) بقيادة طارق بن زياد (مولى موسى وعامله على طنجة). عبر طارق البحر ونزل عند الجبل الذي سُمي باسمه (جبل طارق)[5]. وعندما علم لذريق (الذي كان مشغولاً بإخماد ثورة في الشمال) بالفتح، جمع جيشاً جراراً (تذكر الروايات أن تعداده يصل إلى 100 ألف جندي، وقد تكون فيها مبالغة، لكن المؤكد أن تفوقه العددي كان مؤكدا). وهكذا التقى الجيشان في وادي لكة (أو شذونة / وادي البرباط) في رمضان 92 هـ / 711 م. ورغم اختلال ميزان القوة العسكرية بين المسلمين والنصارى الاسبان، فقد انهار الجيش القوطي بسرعة بسبب ثبات قوات طارق وخيانة أبناء غيطشة وانضمام الكونت يوليان للمسلمين، وقُتل لذريق، مما فتح الباب على مصراعيه لفتح الأندلس[6].

ويصف المقري التلمساني هذا النصر المؤزر قائلا: "ثم انهزموا ولذريق أمامهم، فاستمرت هزيمتهم وأذرع المسلمون القتل فيهم، وخفي أثر لذريق فلا يُدرى أمره"[7].

---

[1] حسين مؤنس، *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)* (الشركة العربية للنشر والتوزيع (العصر الحديث) ودار المناهل، 2002)، ص 121.

[2] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج2، ص 6.

[3] ابن الكردبوس وابن الشباط، *تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان*، تحقيق أحمد مختار العبادي (معهد الدراسات الإسلامية، 1971)، ص 45.

[4] مؤنس، *فجر الأندلس*، ص 129.

[5] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص 269.

[6] ابن عبد الحكم، *فتوح مصر والمغرب*، ص 279.

[7] المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب*، تحقيق إحسان عباس (دار صادر، 1968)، ج1، ص 259.

رابعاً: استكمال الفتح وتنظيمه الإداري (93 هـ - 95 هـ)

استغل طارق هذا النصر وعجّل في فتح المدن الكبرى (قرطبة، إشبيلية، طليطلة) بسرعة مذهلة، مستفيداً من رغبة السكان في الخلاص من الحكم القوطي، ومن تعاون يوليان، ومهادنة اليهود[1]. وفي سنة 93 هـ / 712 م، عبر موسى بن نصير بنفسه على رأس جيش آخر (قوامه 18000 من العرب والتابعين) لاستكمال الفتح، وفتح المناطق التي لم يدخلها طارق (مثل ماردة وقرمونة) وتنظيم شؤون البلاد وتثبيت سلطة الخلافة عليها[2]. وبعد أن التقيا عند طلبيرة، واصلا الفتح معاً حتى وصلا إلى أقصى الشمال الغربي ومدينة "برشلونة"[3]، وهكذا، تحولت الأندلس بسرعة إلى ولاية تابعة لولاية المغرب، مرتبطة بالخلافة الأموية، وتميزت فترة الفتح بتأسيس النظام الإداري (توزيع الأراضي، إقرار الجزية والعهود مع السكان الذين فضلوا الصلح[4].

4. الخلاصة:

لم يكن فتح الأندلس مجرد حملة عسكرية عابرة، بل كان فتحاً مبيناً، تم بفضل تضافر جهود المسلمين (عرباً وبربراً) وحنكة قادتهم، واستغلالاً ذكياً للظروف المواتية في الجزيرة الأيبيرية. شكلت هذه المرحلة نقطة انطلاق لبناء حضارة إسلامية زاهرة في أوروبا، غيرت وجه المنطقة لعدة قرون، وجعلت من الأندلس مركز ثقل سياسي وثقافي في الغرب الإسلامي.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

- حلّل الدور الذي لعبه الكونت جوليان في تسهيل الفتح الإسلامي للأندلس.
- قارن بين الأسلوب العسكري والنتائج السياسية لحملتي طارق بن زياد وموسى بن نصير.
- ناقش كيف ساهمت الصراعات الداخلية وانعدام الاستقرار في مملكة القوط في سرعة انهيارها أمام المسلمين.

---

[1] مؤنس، *فجر الأندلس*، ص 138.

[2] ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، ص 12

[3] مؤنس، *فجر الأندلس*، ص 148.

[4] محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول. القسم الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر*، ط4 (مكتبة الخانجي، 1997)، ص 65.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن عبد الحكم، عبد الرحمان. *فتوح مصر والمغرب*. سلسلة الذخائر 22. الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1999.
2. الشباط، ابن الكردبوس وابن. *تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان*. تحقيق أحمد مختار العبادي. معهد الدراسات الإسلامية، 1971.
3. ابن عذاري، المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. 3 ط. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
4. المقري التلمساني، بن. *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب*. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، 1968.
5. عنان، محمد عبد الله. *دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول، القسم الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر*. 4 ط. مكتبة الخانجي، 1997.
6. مؤنس، حسين. *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)*. الشركة العربية للنشر والتوزيع (العصر الحديث) ودار المناهل، 2002.
7. مؤنس، حسين. *معالم تاريخ المغرب والأندلس*. دار الرشاد، 2000.

المحور الأول: مرحلة الفتوحات وتأسيس الولاية الإسلامية

المحاضرة 03: عصر الولاة في بلاد المغرب الإسلامي (التنظيم الإداري والتمردات الكبرى)

1. أهداف المحاضرة:

- تتبع خطوات الاستقلال الإداري لولاية المغرب عن ولاية مصر وارتباطها المباشر بمركز الخلافة.
- تحليل طبيعة السياسة الأموية في بلاد المغرب والأندلس (إشكالية الجباية ومعاملة الموالي).
- فهم الأسباب العميقة لاندلاع "ثورة البربر الكبرى" (122 هـ) ودور المذهب الخارجي في تأطيرها.
- إدراك كيف مهدت نهاية عصر الولاة لظهور الدويلات المستقلة في بلاد المغرب الإسلامي.

2. مقدمة المحاضرة:

بعد اكتمال الفتح العسكري، دخل المغرب الإسلامي مرحلة التأسيس الإداري والسياسي، والتي تُعرف تاريخياً بـ "عصر الولاة". ورغم الجهود المبذولة لنشر الإسلام وتعريب الإدارة، إلا أن هذه المرحلة اتسمت باضطرابات عميقة، فقد اصطدمت طموحات المغاربة (البربر) في المساواة الإسلامية التامة، بسياسات تعسفية لبعض الولاة الأمويين الذين مالوا إلى العصبية القبلية وأثقلوا كاهل السكان بالضرائب، مما هيأ الأرضية لاندلاع ثورات عنيفة غيرت مجرى التاريخ السياسي للمنطقة.

3. العناصر الأساسية:

أولاً: الاستقلال الإداري والتنظيم المؤسساتي

في البدايات، كانت بلاد المغرب إدارياً تابعة لولاية مصر (يُعين والي مصر حاكماً على إفريقية). غير أن اتساع الرقعة الجغرافية بعد الفتوحات استوجب تغييراً استراتيجياً. ففي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبناءً على طلب وإلحاح من موسى بن نصير، تم فصل

ولاية إفريقية والمغرب عن مصر لتصبح ولاية مستقلة ترتبط مباشرة بدمشق[1]، حيث اتخذ الولاة من "القيروان" عاصمة كبرى لهم، وقسموا المغرب الإسلامي إلى مقاطعات (كور) أهمها: ولاية طنجة (المغرب الأقصى)، وولاية السوس، وولاية الأندلس التي كان يعين عليها والٍ يأتمر بأمر والي القيروان[2].

ثانياً: السياسة الأموية وإشكالية "الموالي" والجباية

اعتمد النظام الأموي بشكل عام على العنصر العربي في المناصب القيادية، وتشدد بعض الولاة في جباية الأموال (الخراج والجزية) حتى من البربر الذين أسلموا (الموالي)، مخالفين بذلك مبدأ المساواة الذي تنص عليه الشريعة الإسلامية. وقد تجلت هذه السياسة التعسفية بشكل واضح في عهد الوالي عبيد الله بن الحبحاب (تولى 116 هـ)، وعامله على طنجة عمر بن عبد الله المرادي. ويصف المؤرخ ابن عذاري هذه التجاوزات قائلاً: "*ثُمَّ إِنَّ عُمَرَبن عبد الله المُراديَّ، عامل طَنْجة وما والاها، أساءَ السيرة وتعدَّى في الصدقات والعُشْر، وأراد تخميس البربر، وزعم أَنَّهم فَيْء المسلمين؛ وذلك ما لم يرتكبه عاملٌ قبلَه؛ وإنَّما كان الولاة يُخَمِّسون من لم يَجِبْ للإسلام. فكان فعلُه الذَّميم هذا سبباً لنَقْضِ البلاد ووقوع الفِتَن العظيمة المؤدّية الى كثير القَتْل في العِباد* ".[3]

ثالثا: الخوارج وثورة البربر الكبرى (122 هـ / 740 م)

وجدت القبائل المحلية في فكر "الخوارج" (خاصة المذهبين الصفري والإباضي) القادم من المشرق، ملاذاً إيديولوجياً يبرر ثورتهم ضد السلطة المركزية، لكون الخوارج ينادون بالمساواة المطلقة وأحقية أي مسلم كفء بالإمامة دون اشتراط القرشية أو العربية[4]. اندلعت شرارة الثورة في طنجة سنة 122 هـ بقيادة ميسرة المطغري (الذي لُقب بميسرة الحقير[5]). وقد نجح ميسرة في طرد العامل الأموي والسيطرة على المغرب الأقصى، وتطورت الأحداث بسرعة، وألحق الثوار هزيمة قاسية بجيوش الخلافة في معركة شهيرة عُرفت بـ "وقعة الأشراف "(122هـ) لكثرة من قُتل فيها من أشراف وقادة العرب[6].

رابعاً: تداعيات الثورة ونهاية السلطة المركزية

---

[1] الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية والمغرب*، ط1، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (دار الفرجاني، 1994)، ص 51.

[2] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص ص 60-61.

[3] ابن عذاري، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج1، ص 52-53.

[4] محمود إسماعيل، *الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، ط2، (دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985)، ص 41.

[5] ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، 52.

[6] الرقيق القيرواني، *تاريخ إفريقية والمغرب*، ص 68.

استمرت الهزائم الأموية، أبرزها معركة "بقدورة "(123هـ) على ضفاف نهر سبو، حيث قُتل القائد كلثوم بن عياض الذي أرسله الخليفة هشام بن عبد الملك بجيش ضخم من الشام لإخماد الثورة[1]. ورغم أن الولاة اللاحقين (مثل حنظلة بن صفوان) تمكنوا من إنقاذ القيروان من السقوط في معركتي "القرن" و"الأصنام" (124 هـ)[2]، إلا أن السلطة المركزية الأموية فقدت سيطرتها الفعلية على معظم أجزاء المغرب الأوسط والأقصى والأندلس، ومع سقوط الدولة الأموية في المشرق (132 هـ)، انفرط عقد الغرب الإسلامي نهائياً، لتبدأ مرحلة الدويلات المستقلة الخاضعة للنفوذ الخارجي والعلوي.

4. الخلاصة:

كان عصر الولاة امتحاناً صعباً لعملية الاندماج الاجتماعي والسياسي في الغرب الإسلامي. ورغم الإنجازات الإدارية، أدت السياسات المالية غير العادلة والنزعة القبلية لبعض الولاة إلى رد فعل عنيف تمثل في تبني المذهب الخارجي كحركة تحرر محلية، حيث شكلت ثورة 122هـ نقطة اللاعودة، إذ قطعت التبعية السياسية المباشرة للمشرق، وأسست لانبثاق كيانات سياسية مغاربية مستقلة.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

- ما هي الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي حولت البربر من جنود في جيش الفتح إلى ثوار ضد الإدارة الأموية؟
- كيف وظّف المغاربة أفكار مذهب الخوارج كأداة سياسية لمواجهة سلطة الولاة؟
- استنتج الانعكاسات الجيوسياسية لـ "وقعة الأشراف" على بنية المغرب الإسلامي.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. الرقيق القيرواني، أبو إسحاق. *تاريخ إفريقية والمغرب*. 1 ط. تحقيق محمد زينهم محمد عزب. دار الفرجاني، 1994.
2. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. 3 ط. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
3. مؤنس، حسين. *معالم تاريخ المغرب والأندلس*. دار الرشاد، 2000.

---

[1] ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، ص 55.

[2] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص 75.

4. محمود إسماعيل، عبد الرازق. *الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري*. 2 ط. دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.

المحور الثاني: عصر الإمارات والدويلات المستقلة

المحاضرة 04: إمارات التأسيس المبكر (دولة بني صالح بنكور - دولة بني مدرار بسجلماسة- إمارة برغواطة في تامسنا)

1. أهداف المحاضرة:

- رصد البدايات الأولى لتفكك السلطة المركزية الأموية في الغرب الإسلامي ونشأة الكيانات المحلية المستقلة.
- المقارنة بين نموذجين مختلفين لتأسيس الدول: النموذج السني ذو الجذور المشرقية (إمارة نكور)، والنموذج الخارجي (الصفري) ذو الجذور البربرية (إمارة سجلماسة)، والنموذج العقائدي الراديكالي/البدعي (إمارة برغواطة).
- تحليل الدور الاقتصادي والاستراتيجي الذي اضطلعت به إمارة سجلماسة في ربط شبكات التجارة العابرة للصحراء، وتأثير ذلك على استقرارها السياسي.
- استيعاب الأبعاد السياسية الكامنة وراء تأسيس "الديانة البرغواطية"، وكيفية توظيف "البدعة" كأداة سوسيولوجية لتحقيق الانفصال وبناء عصبية محلية منغلقة.

2. مقدمة المحاضرة:

لم تنتظر بعض أقاليم الغرب الإسلامي السقوط النهائي للخلافة الأموية أو اكتمال تداعيات "ثورة البربر الكبرى" لتستقل بشؤونها؛ فقد تضافرت عوامل الجغرافيا الوعرة، والنزعات الاستقلالية، والمطامح الاقتصادية، لتُفرز واقعاً سياسياً جديداً تمثل في ظهور "إمارات التأسيس المبكر". تُجسد هذه المحاضرة دراسة تحليلية لثلاثة نماذج متباينة جذرياً شكلت النواة الأولى للانفصال عن السلطة المركزية بالمشرق: أولها إمارة "بني صالح "في نكور التي مثلت رباطاً حدودياً سنياً موالياً للمركز، وثانيها إمارة "بني مدرار"بسجلماسة التي جسدت أول نجاح سياسي للفكر الخارجي الصفري مستندةً إلى قوة تجارة القوافل الصحراوية، وثالثها إمارة "برغواطة "بتامسنا التي نحتت مساراً راديكالياً بتوظيف "البدعة الدينية والادعاء بالنبوة" لخلق كيان سياسي وعرقي منغلق ومتمرد. إن المقارنة بين هذه النماذج الثلاثة تُعد مدخلاً أساسياً ومحورياً لفهم الخريطة السياسية، المذهبية، والاقتصادية المعقدة للغرب الإسلامي في بدايات استقلاله.

3. العناصر الأساسية:

أولاً: إمارة بني صالح بنكور (91 هـ - 305 هـ)

أ. ظروف النشأة والتأسيس :

تُعد إمارة نكور (أو ناكور) أقدم إمارة إسلامية في بلاد المغرب، حيث مثلت النواة الأولى للاستقرار السياسي المنظم والمستقل نسبياً في المنطقة، وتعود جذور تأسيس هذه الدولة إلى أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (حوالي 91 هـ)، حين نزل "صالح بن منصور" الحِميَري، الذي عُرف بلقب "العبد الصالح" لورعه، بمنطقة الريف (شمال المغرب الأقصى)[1].

لم تكن مهمة صالح عسكرية محضة، بل غلب عليها الطابع الدعوي، حيث تفانى في نشر الإسلام وتعليم شرائعه بين قبائل "غمارة" و"صنهاجة" البربرية المحيطة[2]، واعترافاً بجهوده في تثبيت دعائم الوجود الإسلامي في هذه الثغور النائية، أقطعه الخليفة الأموي تلك المنطقة لتكون بمثابة رباط إسلامي وإمارة حدودية تحمي سواحل المغرب[3].

لم يكن مسار هذا التأسيس دون عقبات؛ إذ تشير المصادر إلى أن بعض قبائل غمارة ضاقت ذرعاً بالشرائع الإسلامية الملزمة فارتدت عن طاعة صالح بن منصور لفترة وجيزة واستبدلته برجل من نفزة يُدعى "داود الرندي"، غير أنهم سرعان ما ثابوا إلى رشدهم وأعادوا صالحاً إلى الإمارة[4]، مما يعكس طبيعة الاندماج الاجتماعي المعقد في بداياته.

ب. التطور السياسي والتوجه المذهبي:

تميزت إمارة بني صالح بخصوصية سياسية ومذهبية فريدة؛ فقد سبحت عكس التيار السائد في المنطقة، حيث حافظت على ارتباط روحي ومذهبي وثيق بالخلافة الأموية (سواء في دمشق أولاً، أو لاحقاً مع الخلافة الأموية في الأندلس)، متمسكة بشدة بالمذهب السني (والفقه المالكي لاحقاً). وقد جعلها هذا الخيار الأيديولوجي الصارم تعيش في حالة توجس وصراع دائم مع محيطها الجيوسياسي، الذي طغت عليه المذاهب الخارجية (كالصفرية في إمارة سجلماسة المجاورة) ثم المذهب الشيعي الإسماعيلي (مع بزوغ فجر الدولة الفاطمية).

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 283.

[2] محمد بن عبد المنعم الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، ط2، تحقيق إحسان عباس (مكتبة لبنان، 1984)، ص 577.

[3] ابن عذاري، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج1، ص 176.

[4] أبو عبيد البكري، *المسالك والممالك*، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري (الدار العربية للكتاب، 1992)، ج2، ص 765.

تطورت الإمارة بشكل كبير لتبلغ أوج قوتها في عهد "سعيد بن إدريس" الذي أدرك أهمية التحصين المعماري، فقام بتأسيس مدينة "نَكُور" لتكون عاصمة جديدة وقاعدة عسكرية حصينة لإمارته[1]، مستفيداً من موقعها الجبلي لصد الأعداء[2]. ورغم حصانتها، واجهت الإمارة الفتية تحديات خارجية وجودية جسيمة، لعل أبرزها الغزو البحري العنيف الذي شنه النورمان (المعروفون في المصادر التاريخية بـ "المجوس") سنة 244 هـ (859 م)[3]، حيث استباحوا العاصمة نكور لثمانية أيام وأسروا الكثير من أهلها، قبل أن يتدخل أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن الأوسط لافتدائهم[4]. إلى جانب هذا التهديد الأوروبي، خاضت الإمارة حروب استنزاف طاحنة للحفاظ على كيانها؛ فقاومت الأطماع التوسعية للأدارسة الذين سعوا لتوحيد المغرب، ثم واجهت المد الفاطمي الزاحف من إفريقية (تونس). ورغم الاستماتة في الدفاع عنها، انتهى المطاف بهذه الإمارة العريقة إلى السقوط النهائي سنة 305هـ على يد القائد الفاطمي مصالة بن حبوس، الذي اجتاحها لينهي بذلك أقدم تجربة سياسية مستقلة في المغرب الأقصى.

ثانياً: دولة بني مدرار بسجلماسة (140 هـ - 366 هـ)

أ. النشأة والخلفية المذهبية:

على النقيض تماماً من تجربة إمارة ناكور السنية الموالية للمركز، تشكلت إمارة بني مدرار في سجلماسة (الواقعة في إقليم تافيلالت بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى) كإفراز مباشر لـ "ثورة البربر الكبرى" والتمدد السريع للمذهب "الخارجي الصفري". تأسست الإمارة بجهود قبيلة "مكناسة" البربرية ذات الشوكة، بزعامة "أبو القاسم سمكو بن واسول" (المعروف بمدرار) في حدود سنة 140 هـ (757 م). لقد مثلت هذه المنطقة المعزولة والمحاطة بالصحراء والجبال ملاذاً آمناً للصفرية الفارين من الملاحقات العسكرية للسلطة المركزية في المشرق (الأموية ثم العباسية). ومما يعكس الطبيعة المذهبية المعقدة في بدايات التأسيس، أن قبيلة مكناسة بايعت في البداية رجلاً أسود يُدعى "عيسى بن يزيد الأَسود" تطبيقاً لمبدأ الخوارج في المساواة المطلقة وعدم اشتراط القرشية أو العصبية في الإمامة[5]، يقول ابن خلدون: "*فلما*

---

[1] إبراهيم حركات، *المغرب عبر التاريخ* (دار الرشاد الحديثة، 2000)، ج1، ص 92.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 284.

[3] ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، ص 176.

[4] البكري، *المسالك والممالك*، ج2، ص 766.

[5] وفاء يعقوب جبريل برناوي، "دولة بني مدرار 'الصفرية' بالمغرب الأقصى الإسلامي: دراسة تاريخية حضارية (140 - 347هـ / 757 - 958م)" (رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2003)، ص 48.

اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج. واختطوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة. ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم"[1]. غير أن النزعة القبلية سرعان ما تغلبت على المبدأ المذهبي، فتم عزله وقتله بعد حوالي خمسة عشر عاماً، لتنتقل الإمامة والقيادة الفعلية بشكل حصري إلى "سمكو بن واسول" وذريته.[2] وسرعان ما تحولت سجلماسة من مجرد خيام متناثرة إلى حاضرة سياسية ودينية مستقلة.

ب. الازدهار الاقتصادي والتجارة الصحراوية:

لم ترتكز قوة إمارة بني مدرار على الثقل العسكري أو التوسع المجالي المباشر، بل استندت بالأساس إلى العصب الاقتصادي المتين، حيث برزت مدينة سجلماسة كـ "ميناء صحراوي" وعقدة الوصل الاستراتيجية والحيوية في شبكة تجارة القوافل العابرة للصحراء الكبرى نحو "بلاد السودان الغربي" (كإمبراطورية غانا وأودغست). واحتكرت هذه الإمارة خطوط التبادل التجاري المربح، حيث كانت القوافل تنطلق منها محملة بالملح (المجلوب من مناجم تغازة) والنحاس والمصنوعات النسيجية، لتعود محملة بأنفس البضائع الاستراتيجية كالتبر (غبار الذهب) والعاج والرقيق[3]. هذا الموقع الاحتكاري درّ على الخزينة المدرارية ثراءً فاحشاً وأموالاً طائلة، مما مكن أمراءها من إعلان سيادة مالية مطلقة عبر سك عملة ذهبية خاصة بهم (الدينار السجلماسي) الذي حظي بموثوقية عالية وتداول واسع في أسواق الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. لقد تحولت أسواق سجلماسة بفضل هذا الحراك إلى منشط اقتصادي استثنائي وواحدة من أغنى حواضر الغرب الإسلامي، مما سمح للإمارة بشراء الولاءات وتثبيت دعائم استقرارها السياسي رغم التهديدات المحيطة.

ج. السقوط ونهاية الإمارة:

رغم فترات الاستقرار الطويلة والازدهار الاقتصادي الاستثنائي، لم تسلم إمارة بني مدرار من الأمراض السياسية التي تفتك بالدول، وعلى رأسها التصدعات الداخلية والصراعات الأسرية الدامية بين أبناء البيت المدراري حول أحقية الحكم، مما أضعف الجبهة الداخلية بشكل ملموس. بالتوازي مع هذا الضعف الداخلي، وجدت سجلماسة نفسها في قلب رحى صراع جيوسياسي إقليمي طاحن؛ حيث سعت القوتان العظميان في المنطقة (الخلافة

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 172.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 172.

[3] وفاء يعقوب جبريل برناوي، "دولة بني مدرار 'الصفرية'، ص ص 107-108.

الأموية في الأندلس شمالاً، والدولة الفاطمية الناشئة في إفريقية شرقاً) إلى السيطرة على العصب الاقتصادي المتمثل في طرق تجارة الذهب الصحراوية. ومع تنامي الخطر الفاطمي، تعرضت سجلماسة لضربة قاصمة أولى سنة 296 هـ عندما دخلها الداعية أبو عبد الله الشيعي لتحرير الإمام المهدي الفاطمي الذي كان معتقلاً بها. ورغم عودة الحكم المدراري بعد ذلك لفترة متقطعة وسط تجاذبات حول الولاء بين قرطبة والمهدية، إلا أن سجلماسة سقطت في النهاية تحت وطأة الحملات العسكرية المتتالية، لتتلقى الضربة القاضية على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلي (حوالي 347 هـ)، وما تلاها من سيطرة قبائل مغراوة الزناتية (بحلول سنة 366 هـ)، ثم اندثرت بعد ذلك وفقدت آثارها[1].

ثالثاً: إمارة برغواطة بتامسنا (126 هـ - 450 هـ / النزعة الانفصالية والبدعة العقائدية)

أ. ظروف النشأة وتوظيف "البدعة" كأداة للسيادة السياسية:

تمثل إمارة برغواطة ظاهرة تاريخية وسوسيولوجية شديدة التعقيد في تاريخ الغرب الإسلامي؛ فقد تجاوزت فكرة المعارضة السياسية التقليدية لتصل إلى حد القطيعة العقائدية التامة مع المنظومة الإسلامية، حيث تعود جذور هذه الإمارة إلى تداعيات "ثورة البربر الكبرى" (122 هـ)، حيث استقرت فلول جيش "ميسرة المطغري" في سهول "تامسنا" الخصبة (الواقعة على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى بين سلا وآسفي) بقيادة "طريف المطغري" (أو طريف بن مالك). وفي حدود سنة 127 هـ، أقدم ابنه "صالح بن طريف" على خطوة راديكالية غير مسبوقة، حيث ادعى النبوة وشرع في تأسيس ديانة جديدة اقتبست بعض القشور الإسلامية ومزجتها بطقوس وثنية وعادات محلية، مصدراً قرآناً باللغة البربرية، وشرائع تخالف الإجماع (كصيام شهر رجب بدل رمضان، وتغيير أوقات وصفات الصلاة).

لم يكن هذا الانحراف العقائدي مجرد نزوة دينية، بل كان – في العمق – مشروعاً سياسياً أيديولوجياً يهدف إلى خلق "عصبية بربرية" مغلقة ومستقلة تماماً عن أي ارتباط رمزي أو روحي بالمركز المشرقي أو بالعروبة، جاعلاً من "الديانة البرغواطية" درعاً يحمي كيانهم السياسي من الاندماج في محيطهم الإسلامي .**[1]**وفي تفصيل هذا المعطى، يورد الجغرافي أبو عبيد البكري أدق الروايات عنهم قائلاً: *"أنّ طريفا... كان من أصحاب ميسرة المطغري...*

---

[1] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ص 85.

فلما قُتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف ببلد تامسنا... وشرع لهم الديانة التي هم عليها...."[1]

ب. القوة العسكرية والتحصن الجغرافي والاقتصادي :

شكلت الديانة الجديدة رابطا أيديولوجياً صلبا لحم قبائل مصمودة في تامسنا، مما منح إمارة برغواطة تماسكاً اجتماعياً وصلابة عسكرية استثنائية. وقد ساعدها في ذلك الجغرافيا المنبسطة لسهول تامسنا التي عُرفت بخصوبتها العالية ووفرة إنتاجها الزراعي، مما ضمن للإمارة اكتفاءً ذاتياً وازدهاراً اقتصادياً منعزلاً عن خطوط التجارة القديمة.

بفضل هذا الثراء والتعداد الديموغرافي الكبير، تمكن ملوك برغواطة (وخاصة في عهد يونس بن إلياس الذي حكم أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري) من بناء آلة عسكرية ضاربة تجاوزت اثني عشر ألف مقاتل، كما تمكنوا من توسيع نفوذهم بقوة السيف، وإجبار القبائل المجاورة على الدخول في طاعتهم وديانتهم[2].

ج. الصدام المستمر والنهاية التراجيدية:

بحكم طبيعتها العقائدية المنحرفة، عاشت إمارة برغواطة في حالة عداء وحرب مفتوحة (جهاد) مع كافة القوى السياسية السنية المحيطة بها، وقد خاضت معارك طاحنة ضد الدولة الإدريسية التي حاولت مراراً استئصال شأفتهم دون جدوى[3]، كما اصطدمت بجيوش زناتة المدعومة من أمويي الأندلس[4]، غير أن الضربة القاصمة لكيانهم السياسي جاءت مع ظهور "الدولة المرابطية" في القرن الخامس الهجري؛ حيث شن المرابطون حرب إبادة شرسة ضدهم باعتبارهم ملاحدة أو كفارا، ورغم شراسة المقاومة البرغواطية التي أدت إلى مقتل الزعيم الروحي للمرابطين "عبد الله بن ياسين" في معركة ضدّهم سنة 450 هـ / 1058 م، إلا أن القائد أبو بكر بن عمر اللمتوني تمكن في النهاية من سحق قوتهم العسكرية وإسقاط إمارتهم وإعادتهم إلى الإسلام[5].

---

[1] البكري، المسالك والممالك، ص 819

[2] البكري، *المسالك والممالك*، ص 827.

[3] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج1، ص 103.

[4] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 278.

[5] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج1، ص 160.

4. الخلاصة:

تكشف دراسة "إمارات التأسيس المبكر" (ناكور، سجلماسة، وبرغواطة) عن مشهد سياسي بالغ التنوع والتعقيد في الغرب الإسلامي إبان تشكله الأول، فقد أفرز الفراغ المترتب عن ضعف السلطة الأموية المركزية استجابات متباينة: فبينما قدمت "نكور" نموذجاً حدودياً مسالماً وموالياً للإسلام السني المركزي، جسدت "سجلماسة" نموذجاً اقتصادياً براغماتياً استغل المذهب الخارجي لبناء شبكات تجارة قارية، وفي المقابل، مثلت "برغواطة" حالة التطرف الأقصى، حيث تم توظيف القطيعة العقائدية (اختراع ديانة جديدة) كأداة سوسيولوجية لبناء استقلال سياسي وعرقي رافض للمحيط. لقد صاغت هذه الكيانات الثلاثة، بتبايناتها الحادة، ملامح التعددية والتطاحن الذي ميز الغرب الإسلامي لقرون، قبل أن تُطوى صفحاتها تباعاً أمام الآلة التوحيدية للإمبراطوريات الكبرى (كالفاطميين والمرابطين).

5. أسئلة للتقييم الذاتي للمحاضرة الرابعة:

1. كيف انعكس التباين المذهبي (السني في نكور، الخارجي في سجلماسة، والبدعي في برغواطة) على صياغة التحالفات والعداوات الخارجية لهذه الإمارات؟
2. ناقش الأبعاد السياسية الكامنة وراء تأسيس "الديانة البرغواطية"، مبيناً كيف تحولت العقيدة إلى أداة لخدمة "العصبية" والاستقلال الإقليمي.
3. قارن بين الأساس الاقتصادي الذي ضمن بقاء إمارة سجلماسة (التجارة العابرة للصحراء) والأساس الذي ضمن بقاء إمارة برغواطة (الزراعة والتحصن الديموغرافي) لفترات طويلة.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.* م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.* ط3. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
3. البكري، أبو عبيد. *المسالك والممالك.* تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري. الدار العربية للكتاب، 1992.

4. الحميري، محمد بن عبد المنعم. *الروض المعطار في خبر الأقطار*. ط2. تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان، 1984.
5. برناوي، وفاء يعقوب جبريل. "دولة بني مدرار 'الصفرية' بالمغرب الأقصى الإسلامي: دراسة تاريخية حضارية (140 - 347هـ / 757 - 958م)". رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2003.
6. حركات، إبراهيم. *المغرب عبر التاريخ*. دار الرشاد الحديثة، 2000.

المحور الثاني: عصر الإمارات والدويلات المستقلة

المحاضرة 05: الدولة الرستمية (160هـ - 296 هـ / 776 م - 909 م)

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب الظروف التاريخية والسياسية التي أطرت استقرار الفكر الإباضي في المغرب الأوسط وتأسيس الدولة الرستمية.
- تحليل طبيعة النظام السياسي الرستمي ومفارقة التحول من مبدأ "الشورى" الإباضي المثالي إلى واقع "التوريث" السياسي.
- إدراك الدور الحضاري والاقتصادي لعاصمة الرستميين "تاهرت" كمركز إشعاع تجاري وثقافي ونموذج للتعايش المذهبي.
- تتبع العوامل البنيوية (الداخلية) والجيوسياسية (الخارجية) التي عجلت بانهيار الدولة أمام الزحف الفاطمي.

2. مقدمة المحاضرة:

تُعد الدولة الرستمية (160 هـ - 296 هـ / 776 م - 909 م) التجربة السياسية الأبرز والأكثر نضجاً للمذهب الخارجي (بفرعه الإباضي المعتدل) في بلاد الغرب الإسلامي. نشأت هذه الدولة في قلب المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) على إثر الإخفاقات العسكرية للإباضية في إفريقية (تونس) أمام الجيوش العباسية. وقد مثلت هذه الإمارة محاولة جادة لبناء "دولة الإمامة" التي تسعى لتطبيق المثل العليا للمذهب، مستندة في ذلك إلى تحالف عميق مع كبريات القبائل البربرية. غير أن مسيرتها التاريخية لم تخلُ من صراعات مريرة للتوفيق بين الصرامة العقائدية وواقع الإدارة السياسية، وهي الصراعات التي صاغت مجدها حيناً، وعجلت بسقوطها حيناً آخر.

1. الجذور التأسيسية ونشأة حاضرة تاهرت (من التبليغ المذهبي إلى البناء السياسي):

لا يمكن فهم التأسيس السياسي للدولة الرستمية بمعزل عن التكوين العقائدي والمذهبي الذي سبقه؛ فقد ارتبطت الجذور الأولى لهذه الدولة بجهود "حملة العلم"، وهم نخبة من الطلبة الذين أُرسلوا إلى مدينة "البصرة" في المشرق لتلقي أصول المذهب الإباضي

على يد إمامهم "أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة". وكان من بين هؤلاء النخبة "عبد الرحمان بن رستم"، الذي رغم أصوله الفارسية، حظي بمكانة مرموقة تعكس مبدأ المساواة في الفكر الإباضي. وقد عاد هؤلاء الدعاة إلى بلاد المغرب لنشر المذهب، حيث تكللت جهودهم بتأسيس أول إمامة إباضية (إمامة الظهور) في إفريقية (تونس) بزعامة "أبي الخطاب المعافري"، والذي عين بدوره عبد الرحمان بن رستم والياً وقاضياً على القيروان[1].

غير أن هذا الكيان الإباضي الفتي سرعان ما اصطدم بالآلة العسكرية الضخمة للخلافة العباسية؛ ففي سنة 144 هـ (761 م)، أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور جيشاً جراراً بقيادة "محمد بن الأشعث الخزاعي" لإعادة إخضاع إفريقية. وانتهت هذه المواجهة بهزيمة ساحقة للإباضية في معركة "تاورغا"، ومقتل الإمام أبي الخطاب. وأمام هذا الانهيار، اضطر عبد الرحمان بن رستم للانسحاب من القيروان ناجياً بحياته برفقة أسرته وبعض أتباعه، متجهاً صوب مجالات المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) للابتعاد عن مرمى الجيوش العباسية[2].

وفي المغرب الأوسط، وجد ابن رستم حاضنة قبلية ومذهبية قوية بين القبائل البربرية الكبرى (كنفوسة، هوارة، لماية، زناتة، لواتة، سدراتة، زواغة، ونفزاوة) التي كانت قد تشربت الفكر الإباضي[3]. في البداية، قاد ابن رستم أتباعه في إطار ما يُعرف في الفقه الإباضي بـ "إمامة الدفاع"، وهي مرحلة انتقالية تهدف إلى تجميع الصفوف ورد العدوان السري للعباسيين. وبعد أن استتب له الأمر، وازدادت شوكته واكتملت شروط الاستقرار، انعقد له مجلس الشورى سنة 160 هـ (776 م) حيث بايعه زعماء القبائل بـ "الإمامة الكبرى" (إمامة الظهور)، ليتحول من زعيم روحي وعسكري مؤقت إلى رئيس دولة سياسية مستقلة[4].

---

[1] أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، *كتاب السير*، ط2، تحقيق أحمد بن سعيد السيابي (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1992)، ج1، ص 118.

[2] أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، *طبقات المشايخ بالمغرب*، تحقيق إبراهيم طلاي (مطبعة البعث، 1974)، ج1، ص ص 34-36.

[3] إسماعيل عبد الرزاق، *الخوارج في بلاد المغرب*، ص ص 54-55.

[4] إبراهيم بكير بحاز، *الدولة الرستمية (160 - 296هـ / 777 - 909م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية*، ط2 (جمعية التراث، 1990)، ص 91.

لم يكد عبد الرحمان بن رستم يُتوج بالإمامة حتى شرع في بناء عاصمة سياسية لدولته، فاختار موقع "تاهرت" (أو تيهرت، والتي تعني محطة أو إقامة باللسان البربري)[1] في سفح "جبل جُزول" بالقرب من نهر مينا. لم يكن هذا الاختيار الجغرافي اعتباطياً، بل أملته ضرورات استراتيجية وأمنية واقتصادية؛ فالموقع كان محصناً بتضاريسه الجبلية الصعبة التي توفر درعاً دفاعياً ضد غزوات العباسيين من الشرق أو الأدارسة لاحقاً من الغرب، فضلاً عن وفرة مياهه وخصوبة أراضيه الزراعية التي تضمن الاكتفاء الذاتي للعاصمة المكتظة[2]، ووقوعه على تقاطع مسالك القوافل التجارية الكبرى[3].

2. البناء السياسي ومفارقة التحول النظري للإمامة (أزمة التوريث وانقسام الصف الإباضي):

قام البناء السياسي للدولة الرستمية في أصله النظري والعقائدي على مبدأ "الشورى" الصارمة؛ إذ يتميز الفقه السياسي الإباضي برفضه القاطع لاحتكار السلطة في عرق معين (كاشتراط القرشية عند أهل السنة، أو الحصر في آل البيت عند الشيعة)، بل يرى أن "الإمامة الكبرى" حق لكل مسلم استوفى شروط العلم والتقوى والكفاءة السياسية والعدل، حتى لو كان "عبداً حبشياً" كما تنص أدبيات الخوارج. وإلى جانب ذلك، ويقر المذهب حق الأمة (ممثلة في أهل الحل والعقد) في محاسبة الإمام، بل وعزله إن هو حاد عن جادة الشرع. لقد جسّد المؤسس "عبد الرحمان بن رستم" هذا النموذج المثالي طيلة فترة حكمه، حيث أدار شؤون الدولة بمنطق التشاور المستمر مع أعيان القبائل وعلماء المذهب، مكرساً بذلك صورة "الإمام العادل[4]."

غير أن التجربة السياسية الرستمية واجهت منعطفاً حرجاً واختباراً عسيراً لمبادئها إثر وفاة المؤسس سنة 171 هـ (787 م). فقبيل وفاته، وتجنباً للفتنة، سلك عبد الرحمان بن رستم مسلك الخليفة عمر بن الخطاب، حيث لم يعين خلفاً مباشراً له، بل ترك الأمر

---

[1] بحاز، *الدولة الرستمية*، ص 90.

[2] إسماعيل عبد الرزاق، *الخوارج في بلاد المغرب*، ص 148.

[3] بحاز، *الدولة الرستمية*،ص 89.

[4] ابن الصغير المالكي، *أخبار الأئمة الرستميين*، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز (دار الغرب الإسلامي، 1986)، ص 36.

"شورى" بين مجلس يضم سبعة من كبار علماء وزعماء الإباضية، كان من بينهم ابنه "عبد الوهاب"[1]. وبعد مداولات شاقة، استقر رأي أغلبية المجلس على مبايعة "عبد الوهاب بن عبد الرحمان" بالإمامة، نظراً لما تمتع به من دهاء سياسي وسعة علم، ولحاجة الدولة الفتية إلى شخصية قوية قادرة على ضبط توازنات القبائل البربرية[2].

لم يمر هذا الانتقال بسلام، بل أحدث شرخاً أيديولوجياً وسياسياً عميقاً داخل الصف الإباضي. فقد اعتبرت شريحة واسعة من الراديكاليين أن انتخاب "الابن" لخلافة "أبيه" ليس سوى التفاف مكشوف على مبدأ الشورى، وتأسيساً مقنعاً لـ "نظام التوريث الملكي" (المُلك العضوض) الذي ثار الخوارج ضده أصلاً منذ العهد الأموي. وقد نتج عن هذا الاعتراض انقسام مذهبي حاد ومسلح، برزت من خلاله فرقة عُرفت بـ "النُكّار "(أو النكارية، لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب وطعنوا في شرعيتها)، وتزعم هذا الجناح المعارض "يزيد بن فنديك"، في مواجهة الفرقة التي والت السلطة وعُرفت بـ "الوهبية"نسبة إلى الإمام عبد الوهاب[3].

أدى هذا الصدع المذهبي إلى اندلاع مواجهات عسكرية دامية كادت تعصف بالدولة في مهدها. غير أن عبد الوهاب أثبت براعة سياسية وعسكرية فائقة؛ فتمكن من استمالة كبريات القبائل (خاصة قبيلة زناتة القوية)، ونجح في حسم الصراع عسكرياً ضد النكار، ثم تفرغ لإعادة هيكلة الدولة[4].

وعليه يمكن القول أنّ عبد الوهاب قد انتقل بالكيان الرستمي من مرحلة البداوة والمثالية المذهبية إلى مرحلة "الدولة المؤسساتية"، حيث نظّم جباية الضرائب، وأنشأ نظاماً دقيقاً للولايات الإدارية يعتمد على تعيين عمال وقضاة في مختلف الأقاليم الخاضعة لنفوذه (من تلمسان غرباً إلى جبل نفوسة في طرابلس شرقاً)، مرسياً بذلك دعائم سلطة مركزية

---

[1] الدرجيني، *طبقات المشايخ بالمغرب*، ص 46.

[2] بحاز، *الدولة الرستمية*، ص 114.

[3] ابن الصغير المالكي، *أخبار الأئمة الرستميين*، ص 37.

[4] إسماعيل عبد الرزاق، *الخوارج في بلاد المغرب*، ص 158.

قوية استمرت لأكثر من قرن، وإن كانت قد ضحت بجزء من نقائها المذهبي لصالح "الواقعية السياسية."

3. تاهرت: حاضرة التسامح الديني وعقدة التجارة الإقليمية (عراق المغرب):

لم تقتصر إنجازات الدولة الرستمية على الجانب السياسي والمذهبي فحسب، بل تجلت عبقريتها الحضارية في خلق نموذج حضري واقتصادي مزدهر في عاصمتها "تاهرت"، التي ارتقت لتصبح واحدة من أهم حواضر الغرب الإسلامي، حتى أطلق عليها الجغرافيون والمؤرخون لقب "عراق المغرب" تشبيهاً لها ببغداد والبصرة في كثافة عمرانها وتنوع قاصديها[1].

لقد تحولت تاهرت بسرعة مذهلة إلى مدينة متعددة الأعراق والمذاهب؛ فاستقطبت هجرات واسعة من مختلف الأقطار، حيث استوطنها الفرس والعرب والبربر، وتوافد عليها التجار والعلماء من الكوفة، البصرة، القيروان، والأندلس[2].

وعلى الرغم من الصورة النمطية التي تربط فكر الخوارج بالتعصب والانغلاق، إلا أن السلطة الرستمية أرست في تاهرت سياسة براغماتية فريدة قوامها "التسامح الديني والفكري" الذي قل نظيره في ذلك العصر. فقد كفل الأئمة الرستميون حرية المعتقد والممارسة الدينية لجميع الوافدين والمقيمين، مما خلق بيئة آمنة للتعايش. وفي شهادة تاريخية نادرة وبالغة الأهمية، يصف المؤرخ السني المعاصر لهم، ابن الصغير، هذا المشهد الحضاري قائلاً: *ولم يكن ينزل بها أحد من الغرباء إلا استوطنها، وابتنى بها... فترى بها المسجد للإباضية، والمسجد للسنيين، والبيع للنصارى، والكنائس لليهود... وكل فريق منهم يعبد الله على دينه لا يعترضه أحد، ولا يمنعه مانع[3]."* وقد امتد هذا التسامح ليشمل المجالس العلمية، حيث كانت قصور الأئمة (مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب) تشهد

---

[1] بحاز، *الدولة الرستمية*، ص 104.

[2] سليمان باشا الباروني، *الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية* (دار الحكمة، 2005)، ص 56.

[3] ابن الصغير المالكي، *أخبار الأئمة الرستميين*، ص ص 31-32.

مناظرات فقهية وكلامية حرة بين علماء الإباضية والمعتزلة والسنة، مما أثرى الحركة الفكرية في المغرب الأوسط[1].

على الصعيد الاقتصادي، أدرك الرستميون أن استقرار دولتهم مرهون بقوتها المالية، فاستثمروا العبقرية الجغرافية لموقع تاهرت لتحويلها إلى "عقدة وصل استراتيجية" ومركز عبور دولي. وأضحت المدينة تتحكم في مسالك "التجارة العابرة للصحراء"، حيث كانت القوافل تنطلق منها نحو سجلماسة ثم إلى أعماق "بلاد السودان" (غانا ومالي) لجلب الذهب، والعبيد، وتتجه شمالاً نحو الموانئ المتوسطية (مثل ميناء أرزيو وتنس) للتبادل مع الأندلس، وشرقاً نحو القيروان والمشرق لجلب التوابل والمنسوجات الرقيقة.

لم تقتصر الحيوية الاقتصادية على التجارة، بل ازدهرت الفلاحة في حوض نهر مينا الخصيب المحيط بالمدينة، ونشطت الصناعات الحرفية، مما أدى إلى تراكم ثروات طائلة في خزينة الدولة. ونتيجة لذلك مكّن هذا الرخاء الاقتصادي الرستميين من تمويل أجهزة الدولة والحفاظ على السلم الأهلي والقبلي دون الحاجة إلى إثقال كاهل الرعية بالضرائب الجائرة، وهو ما يفسر طول استقرار هذه الإمارة لأكثر من مائة وثلاثين عاماً.

د. التصدع الداخلي والانهيار (من التمزق الأسري إلى الاجتياح الفاطمي):

على الرغم من الرسوخ المؤسساتي والازدهار الاقتصادي الذي طبع العصر الذهبي للدولة الرستمية، إلا أنها حملت في أطوارها المتأخرة بذور فنائها البنيوية. فمع ولوج القرن الثالث الهجري مراحله الأخيرة، شهدت مؤسسة "الإمامة" تدهوراً خطيراً في هيبتها الروحية؛ إذ تحولت من قيادة دينية تحتكم إلى مجالس الشورى والتقوى، إلى شبه "مُلك عضوض" يتوارثه الأبناء وتتقاذفه الأهواء الشخصية. وقد تفجرت هذه التناقضات بشكل مأساوي في سلسلة من الصراعات الأسرية الدموية على كرسي الحكم، ولعل أبرزها وأشدها تدميراً تلك الفتنة الطاحنة التي نشبت بين الإمام "أبي حاتم يوسف بن محمد" وعمه "اليقظان بن محمد". الأمر الذي أدى إلى استقطاب حاد داخل النسيج القبلي البربري الحاضن للدولة، حيث انقسمت الولاءات العسكرية وتحزبت القبائل (لا سيما فروع قبيلة زناتة القوية التي

---

[1] بحاز، *الدولة الرستمية*، ص 333.

كانت تشكل العمود الفقري للجيش الرستمي)، مما أضعف الجبهة الداخلية، وأنهك الخزينة العامة، وجعل الدولة مكشوفة سياسياً وعسكرياً[1].

تزامن هذا الوهن الداخلي والتمزق السياسي في تاهرت مع تحول جيوسياسي وعقائدي زلزل الخارطة المغاربية برمتها؛ والمتمثل في بزوغ فجر "الدعوة الفاطمية" الشيعية الإسماعيلية في إفريقية (تونس حالياً). لقد شكل هذا الكيان الناشئ، المدعوم بالشوكة العسكرية الكاسحة لقبائل "كتامة" البربرية، تهديداً وجودياً ومباشراً للإمارة الرستمية، ليس فقط لاعتبارات التوسع الترابي والسيطرة على طرق التجارة الصحراوية، بل لعمق التناقض الأيديولوجي والمذهبي الصارخ بين الراديكالية الشيعية والفكر الخارجي الإباضي. وقد أدرك الداعية الشيعي المحنك "أبو عبد الله الشيعي" هشاشة الوضع الداخلي في تاهرت، فاستغل حالة الفوضى وانفضاض كثير من القبائل عن نصرة الإمام الأخير "اليقظان بن محمد"، ليشن حملة عسكرية صاعقة لاجتياح مجالات المغرب الأوسط[2].

لم تصمد تاهرت طويلاً أمام الزحف الكثيف والمباغت للجيوش الفاطمية. وفي سنة 296 هـ (909 م)، اقتحمت جيوش أبي عبد الله الشيعي العاصمة الرستمية بعد مقاومة يائسة وضعيفة، وقد أسفر هذا السقوط المريع عن مأساة حقيقية؛ حيث قُتل آخر الأئمة الرستميين (اليقظان بن محمد) مع عدد كبير من أفراد البيت الحاكم وكبار علماء المذهب الإباضي، ونُهبت قصور تاهرت ومكتباتها الزاخرة بالمخطوطات[3]. وأمام هذه الهزيمة الساحقة والبطش الفاطمي، أدرك من نجا من الإباضية استحالة المواجهة العسكرية، فلم يجدوا أمامهم سوى تفعيل مبدأ "الكتمان" الفقهي، واللجوء إلى خيار الانسحاب الاستراتيجي نحو المجالات الصحراوية القاحلة والنائية جنوباً. اتجهت فلولهم أولاً نحو مدينة "سدراتة" (بالقرب من ورقلة الحالية)، ليستقروا لاحقاً في شبكة قرى "وادي مزاب" العتيدة، معتصمين بعقيدتهم في بيئة جغرافية قاسية بعيداً عن تقلبات السياسة وعسف السلطة

---

[1] إسماعيل عبد الرزاق، *الخوارج في بلاد المغرب*، ص 229.

[2] بحاز، *الدولة الرستمية*، ص 127.

[3] الباروني، *الأزهار الرياضية*، ص 346.

المركزية الجديدة. وبذلك طُويت نهائياً وبشكل تراجيدي صفحة أول وأهم تجربة سياسية مؤسساتية للمذهب الإباضي في بلاد المغرب الإسلامي.

4. الخلاصة:

تمثل الدولة الرستمية تجربة حضارية رائدة في تاريخ الغرب الإسلامي، حيث برهنت على إمكانية بناء دولة مستقرة ومزدهرة استناداً إلى أيديولوجيا معارضة (المذهب الإباضي). لقد نجح الرستميون في تحويل المغرب الأوسط من منطقة اضطرابات إلى مركز تجاري وثقافي يجمع بين مختلف الأعراق والمذاهب. غير أن فشلهم في حل المعضلة الكامنة بين "مثالية الشورى المذهبية" و"حتمية التوريث السياسي العصبوي"، أورثهم انقسامات داخلية قاتلة، جعلت كيانهم السياسي فريسة سهلة أمام المد الفاطمي الشيعي الصاعد.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. حلل التناقض بين نظرية "الإمامة" في الفقه الإباضي وبين الممارسة السياسية الفعلية التي أرساها عبد الوهاب بن عبد الرحمان.
2. كيف ساهمت سياسة "التسامح المذهبي والديني" التي انتهجها حكام تاهرت في خدمة التطور الاقتصادي للدولة الرستمية؟
3. إلى أي مدى يمكن اعتبار التدخل الفاطمي سبباً وحيداً لسقوط الدولة الرستمية، أم أن عوامل الانهيار الداخلي كانت حاسمة في هذا السقوط؟

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن الصغير المالكي. *أخبار الأئمة الرستميين*. تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز. دار الغرب الإسلامي، 1986.
2. إسماعيل عبد الرزاق، محمود. *الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري*. 2 ط. دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.
3. الباروني، سليمان باشا. *الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية*. دار الحكمة، 2005.
4. الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد. *طبقات المشايخ بالمغرب*. تحقيق إبراهيم طلاي. مطبعة البعث، 1974.
5. الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد. *كتاب السير*. ط2. تحقيق أحمد بن سعيد السيابي. سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1992.

6. بحاز، إبراهيم بكير. *الدولة الرستمية (160 - 296هـ / 777 - 909م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية*. ط2. جمعية التراث، 1990.

المحور الثاني: عصر الإمارات والدويلات المستقلة

المحاضرة (06) الدول العلوية المستقلة (الدولة الإدريسية والإمارات السليمانية)

1. أهداف المحاضرة:

- إدراك السياق التاريخي والسياسي المشرقي (الاضطهاد العباسي وموقعة فخ) الذي أدى إلى هجرة العلويين نحو الغرب الإسلامي.
- تحليل آليات التأسيس السياسي للدولة الإدريسية، وكيفية توظيف "النسب الشريف" كبديل أيديولوجي لمواجهة النفوذ العباسي والخارجي معاً.
- استيعاب الدور الحضاري والسياسي لتأسيس حاضرة "فاس" كمركز إشعاع وعاصمة لتعريب المغرب الأقصى.
- تتبع المسار التاريخي الموازي لـ "الإمارات السليمانية" في المغرب الأوسط، وفهم طبيعة العلاقة السياسية التي ربطتها بالمركز الإدريسي.

2. مقدمة المحاضرة:

شهد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري تحولاً مفصلياً في الخريطة السياسية والمذهبية للغرب الإسلامي؛ فبعد أن كانت المعارضة تقتصر على الحركات الخوارجية (الصفرية والإباضية)، برز تيار جديد يحمل شرعية تاريخية وروحية ثقيلة، وهو "التيار العلوي". لقد وفرت الجغرافيا المغاربية النائية والمحصنة ملاذاً آمناً للناجين من بطش الخلافة العباسية في المشرق.

وبفضل التلاحم بين "النسب الشريف" والعصبية القبلية البربرية، تأسست في المغرب الأقصى الدولة الإدريسية (أول دولة علوية مستقلة في التاريخ الإسلامي)، وبموازاتها تشكلت الإمارات السليمانية في المغرب الأوسط، لتساهما معاً في صياغة هوية سياسية وحضارية جديدة للمنطقة، تقطع مع التبعية للمشرق وترسخ الانتماء للإسلام السني في عمق الأطراف.

3. العناصر الأساسية:

أولاً: الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى (172 هـ - 363 هـ / النواة العلوية الأولى)

أ. السياق المشرقي، اللجوء، والعبقرية السياسية في التأسيس (من فخ إلى وليلي):

لا يمكن قراءة تأسيس دولة الأدارسة بمعزل عن الأزمة الهيكلية والسياسية العميقة التي عصفت بالخلافة العباسية في المشرق، فقد بلغت المواجهة بين العباسيين والعلويين (الطامحين للأحقية في الخلافة) ذروتها الدموية في "موقعة فخ" (بضواحي مكة في ذي الحجة سنة 169 هـ / 786 م)، وقد انتهت هذه المعركة بمجزرة مروعة في حق العلويين، لم ينجُ منها سوى قلة قليلة، كان من أبرزهم "إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى"، وأمام إحكام قبضة العباسيين على المشرق، أدرك إدريس بعبقرية استراتيجية أن ملاذه الوحيد يكمن في "الأطراف القصوى" للعالم الإسلامي، حيث تضعف سلطة المركز وتتوفر الحاضنة القبلية الرافضة للهيمنة المشرقية[1].

بدأت رحلة اللجوء المعقدة بتخفٍ تام، حيث رافقه مولاه الوفي والمحنك "راشد". وتشير المصادر إلى تفصيل بالغ الأهمية يعكس حجم التغلغل العلوي حتى داخل أجهزة الدولة العباسية؛ إذ تلقى إدريس مساعدة حاسمة للعبور إلى إفريقية من طرف "واضح" (مولى صالح بن المنصور وعامل البريد العباسي على مصر)، الذي غامر بحياته لتهريبهما. واصل إدريس رحلته متجاوزاً القيروان وتلمسان وطنجة، ليستقر به المقام أخيراً في مدينة "وليلي"بالمغرب الأقصى في ربيع الأول سنة 172 هـ[2].

التقى إدريس في وليلي بزعيم قبيلة "أوربة" البربرية الكبرى، "إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي"[3]، وقد تجلت عملية التوظيف السياسي الناجح لـ "النسب الشريف": حينما أدركت أوربة (التي كانت تعاني من إنهاك الحروب الخوارجية وتطمح للزعامة على باقي القبائل) أنّ احتضان سليل النبوة سيوفر لها "شرعية روحية وسياسية" لا تضاهى،

---

[1] سعدون عباس نصر الله، *دولة الأدارسة في المغرب: عصر القوة والانتشار (172 - 375 هـ / 788 - 985 م)* (دار النهضة العربية، 1987)، ص ص 59-60.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 195.

[3] ابن أبي زرع الفاسي، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس* (دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972)، ص 19.

وبالفعل في 4 رمضان 172 هـ (789 م)، تنازل إسحاق عن سلطته السياسية وبايع إدريس الأول بالإمامة الكبرى، وتلته قبائل زناتة، زواغة، سدراتة، ومكناسة[1].

لم تكن هذه البيعة مجرد عقد سياسي، بل كانت إعلاناً بظهور "شرعية بديلة" في الغرب الإسلامي تدمج بين "المظلة العلوية الوافدة" و"العصبية البربرية المحلية، وانطلاقا من هذه القوة الموحدة، أطلق إدريس الأول حملات عسكرية واسعة لتوحيد المغرب الأقصى والقضاء على الجيوب الوثنية واليهودية والمسيحية، وامتد نفوذه شرقاً حتى تلمسان التي دانت له بالطاعة[2].

ب. صدمة الاغتيال، أزمة الانتقال، والمشروع الحضاري لإدريس الثاني:

شكل التمدد السريع للدولة الإدريسية رعباً استراتيجياً للخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي أدرك استحالة تسيير جيش نظامي إلى أقصى المغرب لوعورة المسالك ووجود كيانات معادية في الطريق كالرستميين، لذا، نجد الرشيد يلجأ إلى سلاح الاغتيال السياسي بتحريض من وزيره يحيى البرمكي، وقد تم إرسال "سليمان بن جرير الشماخ"، الذي تظاهر بالتشيع والولاء للعلويين، فتقرب من إدريس الأول وتمكن من اغتياله بـ "عطر مسموم" (وقيل بسواك مسموم) سنة 177 هـ[3].

خلّف هذا الاغتيال فراغاً مرعباً هدد بنسف المشروع الإدريسي في مهده، إذ لم يترك إدريس خلفاً ذكراً، بل ترك جارية بربرية (كنزة) حاملاً، وفي هذه اللحظة المفصلية، برز الدور التاريخي لـ "المولى راشد" وزعماء أوربة الذين أظهروا ولاءً استثنائياً للبيت العلوي؛ فقرروا تجميد البيعة حتى تضع كنزة حملها، وبعد ولادة "إدريس الثاني"، تكفل راشد بتربيته وإعداده سياسياً وعسكرياً لحوالي إحدى عشرة سنة، ورغم تعرض راشد نفسه للاغتيال (بتدبير من عامل إفريقية الأغلبي سنة 188 هـ)، استمرت القبائل في وفائها حتى تمت المبايعة الرسمية لإدريس الثاني وهو ابن إحدى عشرة سنة (188 هـ / 804 م)[4].

---

[1] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، ص 20.

[2] عباس نصر الله، *دولة الأدارسة في المغرب*، ص 75.

[3] ابن عذاري، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج1، ص 210.

[4] محمود إسماعيل عبد الرزاق، *الأدارسة في المغرب الأقصى: حقائق جديدة* (مكتبة مدبولي، 1991)، ص ص 63-64.

يُجمع المؤرخون على أن إدريس الثاني هو "المؤسس الفعلي والمؤسساتي" للدولة، فقد أدرك بوعي سياسي مبكر أن الاعتماد المطلق على عصبية قبيلة "أوربة" في مدينة "وليلي" الضيقة سيجعل منه مجرد رهينة سياسية لديهم، لذلك اتخذ قراراً استراتيجياً ببناء عاصمة إمبراطورية جديدة متحررة من الضغوط القبلية، فأسس مدينة "فاس"سنة 192 هـ (808 م)[1].

لم يكن تأسيس فاس حدثاً عمرانياً فحسب، بل كان "هندسة ديموغرافية وحضارية"؛ حيث استقطب إدريس الثاني موجات من الهجرة العربية النوعية لتوطينها في العاصمة الجديدة، وبالفعل استقبلت فاس آلاف العائلات الأندلسية الفارة من بطش الحكم الأموي بقرطبة إثر "وقعة الربض" (وسكنوا ما عُرف بعدوة الأندلسيين سنة 202 هـ)، ثم استقبلت موجات من العائلات القيروانية الفارة من تعسف الأغالبة في إفريقية (وسكنوا ما عُرف بعدوة القرويين سنة 210 هـ) [2].

أحدث هذا الاستقطاب الديموغرافي تحولاً جذرياً في بنية المغرب الأقصى؛ فتحولت فاس من معسكر سلطاني إلى حاضرة اقتصادية وعلمية كبرى، وتسارعت وتيرة "التعريب" السلمي للقبائل المحيطة، وتكرس المذهب السني (المالكي فيما بعد) في البلاد بفضل هذه النخب الوافدة، مما جعل الدولة الإدريسية محطة العبور الحقيقية للمغرب نحو الاندماج الحضاري الإسلامي الشامل.

ثانياً: الإمارات السليمانية بالمغرب الأوسط (حوالي 170 هـ - 319 هـ)

أ. التأسيس والنشأة الموازية (من اللجوء إلى حكم تلمسان) :

---

[1] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، ص ص 29-31.

[2] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، ص ص 46-48.

ارتبطت البدايات الأولى للوجود السليماني في المغرب الأوسط بنفس المخاض العسير والتداعيات التراجيدية لـ "موقعة فخ" (169هـ) التي أفرزت نظيرتها الإدريسية في المغرب الأقصى، فقد تمكن "سليمان بن عبد الله الكامل" (الأخ الشقيق لإدريس الأول) من النجاة والفرار متجهاً نحو إفريقية ثم المغرب الأوسط، حيث نزل بمدينة "تلمسان"، ووجد فيها حاضنة قبلية قوية من قبائل "زناتة" البربرية[1].

غير أن الرواية التاريخية حول طبيعة استقراره وحكمه تكتسي طابعاً جدلياً بين المؤرخين؛ فبينما تميل بعض المصادر إلى أنه استقل بإمارة تلمسان فور وصوله مستفيداً من نسبه الشريف، يرجح ابن خلدون رواية أكثر تماسكاً من الناحية الجيوسياسية؛ ومفادها أن سليمان لحق بأخيه إدريس الأول في المغرب الأقصى، وأن إدريس هو من وجّهه وعيَّنه عاملاً على تلمسان وما والاها، لتكون بمثابة منطقة عازلة و"درع شرقي" يحمي النواة الإدريسية من هجمات العباسيين أو الخوارج الرستميين المتاخمين لهم[2]، وبغض النظر عن طبيعة التأسيس (استقلال أم تعيين)، فقد شكل استقرار سليمان النواة الأولى لكيان علوي موازٍ في المغرب الأوسط.

ب. التبلور الإداري، علاقة التبعية، والتشظي المجالي:

لم تتضح المعالم المؤسساتية للإمارات السليمانية إلا في عهد ابنه "محمد بن سليمان"، حيث استغل هذا الأخير حادثة اغتيال إدريس الأول والفراغ السياسي الذي أعقبها (صغر سن إدريس الثاني)، ليوسع نفوذه في أرجاء المغرب الأوسط، متصرفاً كأمير مستقل تماماً، ومؤسساً لقواعد إدارية وعسكرية خاصة به في تلمسان. غير أن هذا الاستقلال المؤقت سرعان ما اصطدم بطموحات "إدريس الثاني" التوسعية بعد بلوغه واشتداد عوده؛ ففي سنة 199 هـ (814 م)، قاد إدريس الثاني حملة عسكرية ضخمة نحو تلمسان لاستعادة نفوذ المركز. وأمام التفوق العسكري الإدريسي، آثر محمد بن سليمان الحكمة والصلح،

---

[1] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، ص ص 15-16.

[2] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، ص 16.

فخرج لاستقبال ابن عمه وقدم له فروض الطاعة، لِيُقره إدريس الثاني بدوره على حكم تلمسان كوالٍ تابعٍ لسلطة "فاس" المركزية.

غير أن الخصوصية الأبرز لهذا الكيان العلوي تجلت في مرحلة ما بعد وفاة "محمد بن سليمان"، حيث غلبت عليه عقلية "التقسيم الإقطاعي "بدلاً من الحفاظ على وحدة الدولة. فقد تقاسم أبناء محمد العشَرة حكم مدن وأقاليم المغرب الأوسط، مما أدى إلى تشظي المنطقة إلى مجموعة دويلات متناثرة تُعرف بـ "الإمارات السليمانية". وفي توثيقه الدقيق لهذا التقسيم، يذكر ابن خلدون أن تلمسان كانت من نصيب أحمد بن محمد، وأرشكول لعيسى بن محمد، وتنس لإبراهيم، وجراوة لإدريس[1].

ولم يكن هذا التوزع الجغرافي آمناً، بل فرضته ضرورات التحصن ضد الخصوم المحيطين؛ إذ يؤكد اليعقوبي في وصفه لممالك بني سليمان المتاخمة للكيانات الإباضية (كهوارة ومطماطة) أن" :كل رجل من بني محمد بن سليمان كان مقيماً متحصناً في مدينة وناحية"[2]. ورغم هذا التشرذم الذي أضعف شوكتهم العسكرية، إلا أنهم اضطلعوا بدور حضاري وتجاري بالغ الأهمية، وشكلوا حائط صد مذهبي وعسكري في بدايات التمدد الإباضي الرستمي.

ج. السقوط السياسي، البراغماتية المذهبية، ونهاية الحكم السليماني:

استمرت الإمارات السليمانية تعيش حالة من التوازن القلق، متأرجحة في ولاءاتها بين المركز الإدريسي التقليدي، والعصبيات الزناتية المحلية. بيد أنّه ومع احتدام الصراع الإقليمي الكبير بين الخلافة الفاطمية (في إفريقية) والخلافة الأموية (في الأندلس)، تحولت هذه الإمارات الصغيرة إلى مجرد "أحجار شطرنج" في حرب الوكالة، ولجأ أمراؤها إلى البراغماتية السياسية والمذهبية لضمان بقائهم. فقد وثّق ابن خلدون انحراف بعض فروعهم نحو التبعية الشيعية، حيث ذكر عن أمير أرشكول (عيسى بن محمد بن سليمان) أنه: "كان منقطعاً إلى الشيعة"، وفي المقابل، ومع اشتداد وطأة حلفاء الفاطميين (كزيري بن

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص 23.

[2] أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ط1، تحقيق محمد أمين ضناوي (دار الكتب العلمية، 2022)، ص 196.

مناد)، اضطر أمراء آخرون (كأبناء أمير تنس) للفرار نحو الأندلس والارتماء في حضن الأمويين، حيث "جاز ابناه حمزة ويحيى إلى الناصر (عبد الرحمن الناصر) فتلقاهما رحباً وتكرمة"[1].

لم تشفع هذه المناورات السياسية للكيان السليماني؛ فقد تلقى ضربته القاضية مع الاجتياحات الفاطمية المتتالية (بقيادة مصالة بن حبوس ثم جوهر الصقلي)، لتنتهي بذلك التجربة السياسية العلوية في المغرب الأوسط نهاية تراجيدية، لخّصها المؤرخ ابن حزم الأندلسي (كما نقل عنه ابن خلدون) في قوله: "وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس... وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر إلى القيروان، وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون هنالك عند البربر"[2]، وبذلك ذاب أحفاد السليمانيين في النسيج الاجتماعي البربري، محتفظين بالوجاهة الروحية المجردة من أي سلطة سياسية.

4. الخلاصة:

مثلت التجربة السياسية العلوية، بشقيها الإدريسي في المغرب الأقصى والسليماني في المغرب الأوسط، منعطفاً حاسماً في مسار الغرب الإسلامي؛ فقد كسرت هذه الدول احتكار الحركات الخوارجية لساحة المعارضة، وقدمت "الشرعية الروحية" (النسب الشريف) كبديل أيديولوجي سلمي نجح في استقطاب العصبيات البربرية وتوظيفها لبناء كيانات مستقلة تماماً عن الخلافة المشرقية.

ورغم التباين الواضح في المسار السياسي بين "المركزية الإدريسية" التي تمكنت من بناء دولة مؤسساتية وإفراز حاضرة كبرى (فاس)، وبين "التجزئة السليمانية" التي اتسمت بالطابع الإقطاعي وضعف الشوكة، إلا أن كِلتا التجربتين تضافرتا في تحقيق تحول بنيوي عميق: تسريع وتيرة التعريب، وتجذير الإسلام السني السمح، وربط الأطراف المغاربية بالهوية الإسلامية العميقة. ومع أن الزحف الفاطمي الشيعي قد أسدل الستار بعنف على نفوذهم

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، 23.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، 24.

السياسي المباشر، إلا أن إرثهم الحضاري والرمزي ظل متأصلاً، وشكل المرجعية التي استندت إليها لاحقاً العديد من الدول والممالك في تاريخ المغرب الإسلامي.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. كيف ساهم قرار إدريس الثاني بالانتقال من العاصمة الأولى "وليلي" إلى تأسيس "فاس" في تحرير القرار السياسي للدولة من هيمنة العصبية القبلية (قبيلة أوربة)؟
2. ناقش دور "النسب الشريف" كأداة استراتيجية لبناء الشرعية السياسية في الغرب الإسلامي، مستدلاً بتجربتي إدريس الأول وسليمان بن عبد الله في استمالة قبائل البربر.
3. استنتج أسباب الهشاشة السياسية والعسكرية لـ "الإمارات السليمانية" مقارنة بـ "الدولة الإدريسية"، مبرزاً أثر عقلية التقسيم الداخلي على التعجيل بسقوطها أمام الزحف الفاطمي.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن أبي زرع الفاسي. *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*. دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 4، م6 تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
3. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. ط3. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
4. إسماعيل عبد الرزاق، محمود. *الأدارسة في المغرب الأقصى: حقائق جديدة*. مكتبة مدبولي، 1991.
5. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. *كتاب البلدان*. ط1. تحقيق محمد أمين ضناوي. دار الكتب العلمية، 2022.
6. عباس نصر الله، سعدون. *دولة الأدارسة في المغرب: عصر القوة والانتشار (172 - 375 هـ / 788 - 985 م)*. دار النهضة العربية، 1987.

المحور الثاني: عصر الإمارات والدويلات المستقلة

المحاضرة (07) دولة الأغالبة بإفريقية (184-296هـ):

1. مقدمة المحاضرة:

عاشت ولاية إفريقية (تونس الحالية وما والاها) أواخر القرن الثاني الهجري حالة من الفوضى العارمة والنزيف العسكري المستمر، نتيجة للثورات المتتالية للخوارج وتمردات قادة الجند العربي، وأمام عجز الخلافة العباسية عن إدارة هذا الإقليم المضطرب وتكبّد خزينتها خسائر فادحة، تفتقت العبقرية السياسية للخليفة هارون الرشيد عن حل سنة 184 هـ يعتمد على الواقعية السياسية؛ تمثل في تفويض حكم إفريقية تفويضاً وراثياً للقائد إبراهيم بن الأغلب مقابل التزامه بإحلال الأمن ودفع ضريبة سنوية، وقد أفرز هذا العقد السياسي دولة الأغالبة، التي جسدت نموذجاً فريداً للكيان السني المتمتع باستقلال فعلي تام، مع بقائه وفياً من الناحية الروحية والاسمية لمظلة الخلافة العباسية.

2. أهداف المحاضرة:

- فهم الظروف السياسية والأمنية في ولاية إفريقية التي دفعت الخلافة العباسية إلى ابتكار "نظام التفويض" (الإمارة الوراثية).
- تحليل طبيعة العلاقة السياسية والقانونية بين دولة الأغالبة والخلافة العباسية (جدلية الاستقلال الفعلي والتبعية الاسمية).
- تقييم استراتيجية "الجهاد البحري" وفتح صقلية كحل لتصدير الأزمة الداخلية (تمردات الجند) نحو الخارج.
- تتبع عوامل الضعف الداخلي التي أدت إلى الانهيار السريع والمفاجئ للدولة أمام الزحف الفاطمي.

أولاً: ظروف التأسيس و"عقد التفويض" (184 هـ / 800 م)

أ. المأزق العباسي في إفريقية (نزيف الدم والمال) :

لفهم الدوافع الحقيقية التي أدت إلى نشأة الدولة الأغلبية، يجب وضع ولاية "إفريقية" (تونس وما والاها) في سياقها الجيوسياسي والاقتصادي أواخر القرن الثاني الهجري، حيث أضحى هذا الإقليم يستنزف مقدرات الخلافة العباسية المشرقية؛ فمن جهة، كانت الثورات المتعاقبة للخوارج (الصفرية والإباضية) تنهك الجيوش النظامية، ومن جهة أخرى – وهو الأهم – كانت تمردات "الجند العرب" (وهم الأرستقراطية العسكرية الوافدة من المشرق والمستقرة بالقيروان) تمثل تهديداً مزمناً، إذ كانوا يرفضون الانصياع لأي والٍ يحاول تقليص امتيازاتهم المالية أو فرض الانضباط العسكري عليهم.

أمام هذا الوضع المنفلت، وجدت بغداد نفسها مضطرة لإرسال حملات عسكرية مكلفة، وتخصيص إعانة مالية سنوية ضخمة تُقتطع من خراج ولاية مصر (تُقدر بمائة ألف دينار) وتُرسل إلى القيروان لمجرد استرضاء الجند وشراء ولائهم، دون أن يحقق ذلك استقراراً مستداماً، لذلك باتت إفريقية عبئاً استراتيجياً ثقيلاً على كاهل الخليفة هارون الرشيد[1].

ب. صعود إبراهيم بن الأغلب وهندسة "الصفقة السياسية.

في خضم هذه الفوضى، برزت شخصية القائد "إبراهيم بن الأغلب التميمي"، حيث كان والده من قادة الجند الخراسانيين، وقد نشأ إبراهيم تنشئة عسكرية وعلمية رصينة. وقد استطاع إبراهيم أن يثبت كفاءة استثنائية عندما تولى إدارة إقليم "الزاب" (الشرق الجزائري حالياً)، حيث نجح في تأمين المنطقة وإرساء قاعدة عسكرية موالية له، وجاءت فرصته التاريخية الذهبية سنة 181 هـ، عندما ثار الجند في القيروان وطردوا الوالي العباسي محمد بن مقاتل العكي، حينها تدخل إبراهيم بجيشه من الزاب، وأخمد التمرد، وأعاد الوالي الشرعي إلى منصبه، مثبتاً بذلك لبغداد أنه "الرجل القوي" القادر على ضبط الإقليم[2].

---

[1] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص 96.

[2] ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، ص ص 90-92.

بناءً على هذا الرصيد، تجاوز إبراهيم بن الأغلب الأعراف الإدارية التقليدية، وتقدم بمشروع سياسي واقتصادي غير مسبوق للخليفة هارون الرشيد، تمثل العرض في معادلة ذكية: أن يُولِّيه الرشيد إمارة إفريقية تفويضاً وراثياً (له ولأبنائه من بعده)، مقابل تنازل إبراهيم عن الإعانة السنوية المصرية (100 ألف دينار)، بل وتعهده بأن يدفع هو للخزينة العباسية ضريبة سنوية قدرها (40 ألف دينار). استشار الرشيد كبار مستشاريه، وعلى رأسهم القائد المحنك "هرثمة بن أعين" (الذي سبق له ولاية إفريقية وخَبِرَ تمرد جندها)، فنصحه بقبول العرض واغتنام هذه الفرصة التي ترفع عن الخلافة مؤونة إقليم متمرد وتدر عليها مالاً إضافياً، وبذلك، صدر المرسوم العباسي بتولية إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ، ويُوثق ابن الأثير هذه اللحظة المفصلية التي حولت إفريقية من ولاية تابعة إلى إمارة شبه مستقلة قائلا أنّ إبراهيم بن الأغلب: *"كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية إفريقية، فكتب إليه بذلك، وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تُحمل إلى افريقية معونة، فنزل إبراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار"*[1].

ج. الطبيعة القانونية والسياسية للإمارة الأغلبية (جدلية التبعية والاستقلال):

لم تكن نشأة دولة الأغالبة نتاج "ثورة عسكرية" أو "انفصال مذهبي" (كما فعل الرستميون أو الأدارسة)، بل كانت تأسيسياً يستند إلى "عقد تفويض شرعي" من سلطة المركز، وقد خلقت هذه المعادلة نموذجاً فريداً في التاريخ السياسي الإسلامي يمكن تسميته بـ"الاستقلال الفعلي والولاء الاسمي"، فعلى مستوى "الولاء الاسمي والمشروعية الروحية"، ظل الأغالبة يعترفون بالسيادة العباسية؛ حيث كان يُدعى للخليفة العباسي على منابر القيروان في خطبة الجمعة (الخطبة)، وتُسك العملة (الدينار الأغلبي) باسم الخليفة العباسي إلى جانب اسم الأمير الأغلبي، كما استمرت المراسلات الدبلوماسية والهدايا تتدفق نحو بغداد. أما على مستوى "الاستقلال الفعلي"، فقد تمتع إبراهيم بن الأغلب وخلفاؤه بسيادة مطلقة في إدارة الشؤون الداخلية؛ فلم يكن لبغداد أي حق في تعيين أو عزل

---

[1] ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ط1 (دار الكتب العلمية، 1987)، ج5، 313.

الأمراء الأغالبة، ولا التدخل في تعيين القضاة والعمال، ولا في توجيه السياسة العسكرية الخارجية للإمارة. وهذا ما وفر للأغالبة حرية الحركة لضبط إفريقية بيد من حديد، وفي الوقت ذاته سحب من معارضيهم (الجند والفقهاء) ورقة "التمرد على طاعة الخليفة"، مما منحهم غطاءً شرعياً حاسماً لضرب معارضيهم باسم قمع الخروج عن طاعة الإمام.

ثانياً: التحديات الداخلية وتمردات "الجند" (صراع الإرادات وهندسة الجيش الموازي)

أ. الطبيعة البنيوية للصراع مع "الأرستقراطية العسكرية":

على عكس الكيانات السياسية الأخرى في الغرب الإسلامي التي واجهت تحديات مذهبية (كالخوارج) أو عرقية (كالبربر)، جاء التهديد الوجودي الأكبر للدولة الأغلبية من حلفائها وحماتها المفترضين: "الجند العرب". كان هؤلاء الجند يمثلون الأرستقراطية العسكرية الوافدة من المشرق (خاصة من أبناء خراسان والشام)، والذين استقروا في القيروان واكتسبوا بمرور الزمن إقطاعيات زراعية شاسعة وامتيازات مالية ضخمة.

تكمن الجذور العميقة لهذا الصراع في التناقض الجوهري بين مشروعين سياسيين: مشروع "الأمير الأغلبي" الذي يسعى إلى بناء سلطة مركزية قوية ومطلقة تحتكر القرار العسكري والمالي، ومشروع "قادة الجند" الذين نظروا إلى إبراهيم بن الأغلب كواحد منهم (مجرد رفيق سلاح)، ورفضوا تحوله إلى ملك مستبد يقيد نفوذهم ويقطع أرزاقهم. لذا، لم تكن ثورات الجند ذات طابع ديني أو مذهبي، بل كانت تمرداً اقتصادياً وسياسياً يهدف إلى الحفاظ على الامتيازات الطبقية ورفض "مأسسة" الدولة التي تحد من سلطة القيادات القبلية والعسكرية[1].

ب. ذروة الانفجار العسكري (تمرد منصور بن نصر الطنبذي):

شهدت العقود الأولى من عمر الدولة الأغلبية سلسلة من الانفجارات العسكرية المتتالية، بدءاً من تمرد "حمديس الكند[2]ي"، ثم تمرد "عمران بن مجالد" في أواخر عهد إبراهيم الأول، غير أن الزلزال الأعنف الذي كاد يعصف بالكيان الأغلبي من جذوره، وقع

---

[1] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص 98.

[2] ابن وردان، *تاريخ مملكة الأغالبة*، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (مكتبة مدبولي، 1988)، ص34(مقدمة التحقيق).

في عهد الأمير القوي "زيادة الله الأول" سنة 209 هـ (824 م)، وتمثل في الثورة العارمة التي قادها "منصور بن نصر الطنبذي."

كان الطنبذي قائداً عسكرياً نافذاً يمتلك قصراً محصناً (قصر الطنبذي) قرب تونس. استطاع أن يجمع حوله فلول الجند الناقمين على زيادة الله الأول بسبب سياسته الصارمة في قطع أرزاق المتمردين وتهميش القيادات العربية التقليدية. تحول التمرد إلى حرب أهلية طاحنة شملت معظم أرجاء إفريقية؛ فسيطر الطنبذي على تونس، وزحف نحو القيروان ليضرب حصاراً خانقاً على الأمير زيادة الله، ولقد وصل الوهن بالسلطة الأغلبية حدّاً جعل زيادة الله يفكر في الفرار وترك المُلك، لولا استماتة بعض الموالين له وتصدع الجبهة الداخلية للمتمردين نتيجة الصراعات الشخصية بين الطنبذي وحلفائه، مما سمح لزيادة الله في النهاية بكسر الحصار وسحق التمرد بدموية قاسية سنة 211 هـ[1].

ج. استراتيجية البقاء: العزلة العمرانية والجيش الموازي:

أدرك الأمراء الأغالبة (بدءاً من المؤسس إبراهيم، ومروراً بزيادة الله الأول) أن التعايش مع هذا "الجند" المتمرد داخل حاضرة القيروان أصبح مستحيلاً، ولمواجهة هذه المعضلة الهيكلية، ابتكرت السلطة الأغلبية استراتيجية دفاعية مزدوجة (عمرانية وعسكرية):

1. **العزلة العمرانية (المدن المحصنة):** لتجنب الاحتكاك اليومي والمفاجئ مع الجند وأهل القيروان الناقمين، قرر إبراهيم بن الأغلب منذ سنة 185 هـ الخروج من القيروان وتأسيس مدينة مَلَكية محصنة خاصة به وبحاشيته سُميت "العباسية" (أو القصر القديم)[2]، على بُعد أميال قليلة من العاصمة، وفي فترة لاحقة، بنى إبراهيم الثاني مدينة "رقادة"[3]، ولم تكن هذه المدن مجرد عواصم إدارية، بل كانت "قلاعاً عسكرية" معزولة ومحاطة بالأسوار لضمان أمن شخص الأمير وحاشيته.

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص ص 252-253.

[2] النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، م 24، تحقيق عبد المجيد ترحيني (دار الكتب العلمية، 1997)، ج24، ص 55.

[3] ابن وردان، *تاريخ مملكة الأغالبة*، ص 63.

2. **هندسة الجيش الموازي (الاعتماد على العبيد السود):** أدركت السلطة الأغلبية أن الولاء القبلي والعربي لم يعد مضموناً. لذا، لجأ الأمراء إلى شراء الآلاف من "الرقيق الأسود" (السودان) المستجلبين عبر طرق التجارة الصحراوية، فضلاً عن الاعتماد على الموالي والصقالبة (الرقيق الأوروبي)، وقد تم تدريب هؤلاء وإغداق الأموال عليهم لخلق "جيش موازي" (يُعرف بجيش العبيد) يدين بالولاء الشخصي والمطلق للأمير الذي أعتقه وموّله، ليكون أداة ضاربة مأمونة الجانب في مواجهة أي تمرد يقوم به الجند العرب، وقد أثبت هذا الجيش فعاليته في إنقاذ زيادة الله الأول خلال فتنة الطنبذي[1].

ثالثاً: الجهاد البحري وفتح صقلية (استراتيجية تصدير الأزمة والامتداد الإمبراطوري)

أ. قراءة في الدوافع: تصدير الأزمة الداخلية واستثمار الفائض العسكري:

لم يكن قرار فتح جزيرة صقلية مجرد استجابة لوازع ديني أو طموح توسعي كلاسيكي، بل كان في جوهره "قراراً جيوسياسياً ذكياً" فرضه المأزق الداخلي الخانق الذي عاشته الدولة الأغلبية، فبعد أن تمكن الأمير "زيادة الله الأول" من سحق تمرد "منصور بن نصر الطنبذي" (سنة 211 هـ) بصعوبة بالغة، أدرك بعبقريته السياسية أن إبقاء هذه الكتل العسكرية الضخمة (الجند العرب) في حالة عطالة داخل إفريقية سيؤدي حتماً إلى احتقانات وانفجارات جديدة[2]، لذا، تفتقت رؤيته الاستراتيجية عن ضرورة "تصدير هذه الأزمة العسكرية نحو الخارج" عبر فتح جبهة جهاد كبرى تُشغل الجند بالقتال، وتستنزف طاقاتهم المتمردة بعيداً عن العاصمة الأغلبية، وتوحد صفوف المجتمع الإفريقي المنقسم خلف راية "الجهاد البحري"[3]، وبالفعل فقد شكلت صقلية، بموقعها الاستراتيجي في قلب البحر الأبيض المتوسط وثرواتها الهائلة، الهدف المثالي لاستيعاب هذا الفائض العسكري المحتقن[4].

---

[1] عبد العزيز سالم، *تاريخ المغرب في العصر الإسلامي*، ص 334.

[2] مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*، ص 202.

[3] عبد الحميد، سعد زغلول، *تاريخ المغرب العربي: الجزء الثاني (تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين)* (منشأة المعارف، د.ت)، ج2، ص 61.

[4] عبد العزيز سالم، *تاريخ المغرب في العصر الإسلامي*، ص 301.

ب. الذريعة البيزنطية وعبقرية القيادة (أسد بن الفرات) :

هذه الضرورة الاستراتيجية الداخلية مع فرصة سياسية خارجية لا تُعوض؛ ففي سنة 211 هـ، اندلع تمرد داخل الجزيرة تقوده شخصية بيزنطية تُدعى "فيمي(Euphemius) "، قائد الأسطول البيزنطي في صقلية، ضد الإمبراطور في القسطنطينية. وبعد انهزامه، فرّ فيمي نحو إفريقية مستنجداً بزيادة الله الأول، وعارضاً عليه تسليمه الجزيرة مقابل مساعدته عسكرياً[1].

تلقف زيادة الله هذه الفرصة (الذريعة القانونية)، وشرع في تعبئة عامة لجيش ضخم سنة 212 هـ (827 م). وتجلت العبقرية السياسية لزيادة الله في اختياره لقائد هذه الحملة؛ حيث لم يختر قائداً عسكرياً تقليدياً من قادة الجند الذين يخشى تمرداتهم، بل عيَّن قاضي القيروان والفقيه العالم "أسد بن الفرات" قائداً عاماً للجيش والأسطول مع احتفاظه بمنصب القضاء. لقد حقق هذا التعيين ضربة سياسية مزدوجة:

- أضفى على الحملة شرعية دينية مقدسة سحبت البساط من تحت أقدام المعارضة الفقهية التي كانت تنتقد ترف الأغالبة.
- أجبر فقهاء المالكية وطلاب العلم (الذين كانوا على عداء مع السلطة) على الانخراط في جيش الدولة للجهاد تحت قيادة شيخهم، مما أحدث تلاحماً فريداً بين السلطة، الجند، والعلماء.

ج. النتائج الاستراتيجية: بحيرة إسلامية وطفرة اقتصادية وعمرانية:

رغم استشهاد القائد أسد بن الفرات مبكراً بوباء الطاعون أثناء حصار مدينة "سرقوسة" (213 هـ)[2]، إلا أن الحملة استمرت بنجاح، وواصل الأغالبة إرسال الإمدادات حتى توجت الجهود بفتح مدينة "باليرمو" (بلرم) سنة 216 هـ/832م، والتي اتُخذت عاصمة للجزيرة الإسلامية، ليتوالى سقوط باقي معاقل البيزنطيين تدريجيا[3].

---

[1] Sarah C. Davis-Secord, *Where Three Worlds Met: Sicily in the Early Medieval Mediterranean* (Cornell University Press, 2017), pp 94-95.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص 254.

[3] Aziz Ahmad, *A History of Islamic Sicily* (Edinburgh University Press, 1975), p10.

أحدث هذا الفتح انقلاباً جذرياً في التوازن الجيوسياسي والاقتصادي للغرب الإسلامي:

1. **السيطرة البحرية (البحيرة الإسلامية)** :تحول الأسطول الأغلبي إلى القوة البحرية الضاربة الأولى في الحوض الأوسط للبحر الأبيض المتوسط، وتمكن من السيطرة على خطوط الملاحة التجارية، بل ووصلت سراياه إلى اختراق السواحل الإيطالية ومحاصرة روما (سنة 231 هـ).
2. **الطفرة الاقتصادية:** تدفقت على خزانة القيروان ثروات هائلة من الغنائم، والضرائب، والخراج المحصل من أراضي صقلية الخصبة، مما أنهى العجز المالي للدولة الأغلبية بشكل كامل.
3. **النهضة العمرانية والحضارية:** انعكس هذا الثراء المادي والهدوء الداخلي المكتسب (بعد خروج العناصر المتمردة للقتال) في نهضة عمرانية كبرى؛ حيث وُجهت الأموال لتأسيس شبكة واسعة من الأربطة الساحلية (كرباط المنستير وسوسة)، وتم تمويل التوسعة الكبرى والزخرفة الفاخرة لـ "جامع عقبة بن نافع" بالقيروان، وتأسيس "جامع الزيتونة" بتونس في عهد زيادة الله الثاني[1]، وبناء الأحواض المائية الضخمة (فسقيات الأغالبة) التي تُعد من أعظم المنجزات الهندسية المائية في العصر الوسيط[2].

4. رابعاً: الانهيار السريع أمام الزحف الفاطمي (296 هـ / السقوط المدوي ونهاية العهد السني)

أ. التآكل الداخلي، الاستبداد، وانفضاض الشرعية الدينية:

تُشكل النهاية السريعة والمفاجئة للدولة الأغلبية مفارقة تاريخية كبرى؛ فالدولة التي امتلكت أقوى أسطول بحري في المتوسط وفتحت صقلية، انهارت عاصمتها بسرعة خاطفة. يكمن التفسير العميق لهذا السقوط في "التعفن الداخلي" والترهل الأخلاقي والسياسي الذي نخر مؤسسة الإمارة في عقودها الأخيرة. فقد تحول أواخر الأمراء الأغالبة (خاصة إبراهيم الثاني، وحفيده زيادة الله الثالث) إلى طغاة دمويين غارقين في جنون الارتياب (البارانويا) وملذات القصور المحصنة.

---

[1] زغلول، *تاريخ المغرب العربي*، ج2، ص ص 71-74.

[2] Amira K. Bennison, *The Almoravid and Almohad Empires* (Edinburgh University Press, 2016), p191.

لقد أقدم "إبراهيم الثاني" على ارتكاب مجازر مروعة شملت إعدام كبار قادته العسكريين، وعلماء القيروان، بل وحتى أفراداً من أسرته، مما دمر النواة الصلبة الموالية للدولة. وبلغ الانحطاط ذروته مع آخر الأمراء، "زيادة الله الثالث"، الذي دشن حكمه بقتل أعمامه وإخوته لضمان العرش، ثم غرق في حياة المجون والترف داخل قصور "رقادة" متجاهلاً الخطر الداهم. لقد أدى هذا الاستبداد والانحراف الأخلاقي إلى نتيجة حتمية وقاتلة" :انفضاض الشرعية الدينية والاجتماعية". فقد أعلن فقهاء المالكية بالقيروان (الذين يمثلون بوصلة الرأي العام) براءتهم من السلطة الأغلبية، ونزعوا عنها الغطاء الشرعي السني، مما جعل المجتمع الإفريقي يقف موقف "المتفرج اللامبالي" بل والشامت أحياناً في مواجهة سقوط دولته[1].

ب. بزوغ الخطر العقائدي وتوظيف العصبية البربرية (الدعوة الفاطمية):

تزامن هذا الفراغ الروحي والسياسي في حاضرة الأغالبة، مع تحول جيوسياسي خطير في الأطراف الغربية لإفريقية (جبال البابور والحضنة). فقد استقر الداعية الإسماعيلي المحنك "أبو عبد الله الشيعي" بين قبائل "كتامة" البربرية ذات الشوكة الجبلية العتيدة، وبفضل دهائه السياسي وقدرته الفائقة على التنظيم، نجح أبو عبد الله في تحويل قبائل كتامة من تجمعات فوضوية إلى "جيش عقائدي" منظم وصارم، تجمعه عصبية قبلية متينة وتدفعه عقيدة شيعية تعده بالخلاص والسيطرة على مقاليد الحكم باسم "المهدي المنتظر".

في مواجهة هذا الجيش العقائدي المتراص، كان الجيش الأغلبي يعاني من هشاشة بنيوية قاتلة؛ فقد كان يعتمد كلياً على "المرتزقة" من العبيد السود والصقالبة الذين يقاتلون من أجل المال، وتفتقر قياداته إلى الكفاءة والروح المعنوية بعد أن أفرغهم استبداد الأمراء من أي ولاء حقيقي. ولذلك، فشلت كل الحملات العسكرية الأغلبية المتتالية في قمع التمرد الكُتامي، وبدأت المدن والحصون الغربية (كميلة، سطيف، وطبنة) تتساقط تباعاً في يد أبي عبد الله الشيعي[2].

ج. الانهيار العسكري، الهروب المخزي، ونهاية الإمارة (296 هـ):

مع توالي الهزائم العسكرية المذلة، وتراجع القوات الأغلبية نحو العاصمة، تفشى الرعب والانهيار النفسي التام داخل أروقة قصر "رقادة". وبدلاً من أن يقود الأمير "زيادة الله

---

[1] Jamil M. Abun-Nasr, *A History of the Maghrib in the Islamic Period* (Cambridge University Press, 1987), pp 55-59.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص 263.

الثالث" المقاومة الأخيرة للدفاع عن عاصمة ملكه، اتخذ قراراً يعكس حجم الإفلاس السياسي والعسكري؛ ففي شهر رجب من سنة 296 هـ (909 م)، قام زيادة الله بجمع كل ما استطاع حمله من أموال الخزينة العامة والجواهر، وحمّلها على مئات الجمال، وفرّ جنح الظلام برفقة حاشيته المقربة نحو المشرق (مصر ثم الشام)، تاركاً إفريقية وجيشه لمصيرهم المحتوم[1].

أحدث هذا الهروب المخزي فراغاً تاماً في السلطة، فانهار الجيش وتفرقت جموعه دون قتال يذكر، حيث تذكر النصوص أنّ أبا عبد الله الشيعي تمكن يوم السبت 1 رجب 296هـ، بجيوشه الكُتامية من دخول مدينة القيروان وقصور رقادة دون أن يواجه أي مقاومة شعبية أو عسكرية[2]، وبذلك سقطت الدولة الأغلبية السنية التي حكمت لأكثر من قرن، ليُعلن رسمياً عن قيام "الخلافة الفاطمية" الشيعية، في تحول استراتيجي ومذهبي زلزل أركان الغرب الإسلامي بأكمله.

5. الخلاصة:

قدمت الدولة الأغلبية نموذجاً سياسياً ذكياً في إدارة الأطراف الإمبراطورية المتمردة، حيث وازنت بين الاستقلال الفعلي الذي يضمن لها مرونة الإدارة المحلية، والولاء الاسمي الذي يمنحها شرعية دينية من مركز الخلافة العباسية، وقد استثمر الأغالبة طاقات مجتمعهم المضطرب في مشروع عظيم وهو "الجهاد البحري"، الذي حول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية وجعل من إفريقية قوة بحرية عظمى، غير أن الركون إلى الترف، والانفصال عن القاعدة الشعبية والدينية (علماء المالكية بالقيروان)، جعل هيكل الدولة هشاً من الداخل، فسقطت فجأة ودون مقاومة تذكر أمام المد العقائدي والعسكري للدولة الفاطمية.

6. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. كيف ساهمت "المعادلة الاقتصادية" (إلغاء الإعانة وتقديم الضريبة) في إقناع هارون الرشيد بمنح إبراهيم بن الأغلب استقلالاً وراثياً؟

---

[1] ابن وردان، *تاريخ مملكة الأغالبة*، ص 63.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص 264.

2. حلل استراتيجية "الجهاد وتصدير الأزمة" التي انتهجها زيادة الله الأول في فتح صقلية (212 هـ)، مبيناً آثارها على الاستقرار الداخلي للدولة.
3. ما هو الدور الذي اضطلع به علماء وفقهاء القيروان (المالكية) في إسقاط الشرعية عن أمراء الأغالبة أواخر عهدهم؟

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن الأثير. *الكامل في التاريخ*. 1 ط. دار الكتب العلمية, 1987.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
3. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. 3 ط. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
4. ابن وردان. *تاريخ مملكة الأغالبة*. تحقيق محمد زينهم محمد عزب. مكتبة مدبولي، 1988.
5. النويري. *نهاية الأرب في فنون الأدب*. م 24، تحقيق عبد المجيد تريحيني. دار الكتب العلمية، 1997.
6. زغلول، عبد الحميد، سعد. *تاريخ المغرب العربي: الجزء الثاني (تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين)*. م 2. منشأة المعارف، د.ت.
7. عبد العزيز سالم. *تاريخ المغرب في العصر الإسلامي*. مؤسسة شباب الجامعة، 1999.
8. مؤنس، حسين. *معالم تاريخ المغرب والأندلس*. دار الرشاد، 2000.
9. Abun-Nasr, Jamil M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period*. Cambridge University Press, 1987.
10. Ahmad, Aziz. *A History of Islamic Sicily*. Edinburgh University Press, 1975.
11. Bennison, Amira K. *The Almoravid and Almohad Empires*. Edinburgh University Press, 2016.
12. Davis-Secord, Sarah C. *Where Three Worlds Met: Sicily in the Early Medieval Mediterranean*. Cornell University Press, 2017.

المحور الثالث: عصر الخلافة الكبرى والتجاذبات الإقليمية

المحاضرة (08) الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (297-361هـ):

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب آليات انتقال "الدعوة الإسماعيلية السرية" إلى مشروع "خلافة سياسية" معلنة في بلاد المغرب.
- تحليل الدور السوسيولوجي والعسكري لقبائل "كتامة" في إسقاط الكيانات السنية والخارجية (الأغالبة والرستميين).
- دراسة ردود الفعل المحلية والمقاومة التي واجهت المشروع الفاطمي (ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد نموذجاً).
- تتبع التحول الجيوسياسي بنقل العاصمة من المهدية إلى القاهرة، وأثره على المغرب الإسلامي.

2. مقدمة المحاضرة:

شكل مطلع القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) زلزالاً جيوسياسياً وعقائدياً في الغرب الإسلامي؛ حيث نجحت الدعوة الشيعية الإسماعيلية في استثمار التذمر الشعبي والتفكك السياسي السني لتأسيس "الخلافة الفاطمية". لم يكن هذا الحدث مجرد تغيير لأسرة حاكمة، بل كان محاولة جذرية لفرض مرجعية مذهبية جديدة تتحدى الخلافة العباسية في المشرق والأموية في الأندلس. استند هذا المشروع إلى عبقرية الداعية "أبي عبد الله الشيعي" الذي وظّف العصبية القبلية لـ "كتامة"، ليجتاح بها معاقل الأغالبة والرستميين، مؤسساً بذلك أول خلافة شيعية في التاريخ الإسلامي.

المحور الأول: التمهيد وتأسيس الدولة الفاطمية في المغرب (من الدعوة إلى الدولة)

1. الجذور والتمهيد: رحلة الدعوة إلى جبال كتامة

لم يكن نجاح الفاطميين في المغرب وليد الصدفة، بل كان ثمرة تخطيط استراتيجي طويل الأمد قادته الدعوة الإسماعيلية.

- **اختيار المجال الجغرافي:** أدرك دعاة الإسماعيلية أن المشرق العباسي شديد الرقابة، فوجهوا أنظارهم نحو بلاد المغرب (تحديداً المغرب الأوسط وإفريقية) لبعدها عن مركز الخلافة ببغداد.
- **دور أبي عبد الله الشيعي:** وصل الداعي "أبو عبد الله الشيعي" إلى بلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري، واستقر في منطقة "إيكجان" (بالقرب من ميلة حالياً)، وبالفعل استغل أبو عبد الله العصبية القبلية لـ قبائل كتامة البربرية، ونجح في استمالتهم من خلال خطاب ديني يبشر بظهور "المهدي المنتظر" الذي سيملأ الأرض عدلاً[1]، مستغلاً في الوقت ذاته حالة التذمر الشعبي من سياسات أمراء دولة الأغالبة.

2. السقوط الأغلبي والزحف الكُتامي

مع تزايد قوة كتامة العسكرية، تحولت الحركة الإسماعيلية من مرحلة "الدعوة السرية" إلى مرحلة "الصدام المسلح"، حيث ساعدها في ذلك:

- **ضعف الإمارة الأغلبية:** تزامنت قوة الفاطميين مع مرحلة ضعف شديد في بنية الدولة الأغلبية، وتحديداً في عهد آخر أمرائها "زيادة الله الثالث"، الذي انغمس في الترف وأهمل شؤون الجند والسياسة.
- **الحسم العسكري (معركة الأربس):** قاد أبو عبد الله الشيعي جيوش كتامة في سلسلة من المعارك الناجحة، سقطت على إثرها مدن كبرى مثل سطيف وميلة، لتُتوج هذه الانتصارات بمعركة "الأربس" الحاسمة سنة **296هـ / 909م** .أدى هذا الانتصار إلى فرار زيادة الله الثالث نحو المشرق، ودخول قوات كتامة إلى مدينة "رقادة" (عاصمة الأغالبة)، مما شكل السقوط الفعلي للإمارة الأغلبية وتهيئة الأرضية لإعلان الخلافة[2].

3. من سجلماسة إلى رقادة: إعلان الخلافة وبناء الدولة

---

[1] القاضي النعمان، *افتتاح الدعوة*، ط2، تحقيق الدشراوي، فرحات (ديوان المطبوعات الجامعية، 1986)، ص 48.

[2] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب*، ج1، ص 146.

لم يكن أبو عبد الله الشيعي يدعوا لنفسه، بل كان الممهد لمشروع الدولة التي كان رأسها المدبر هو "عبيد الله المهدي"، الذي وصل إلى السلطة عبر مراحل ثلاث هي:

- **تحرير المهدي من سجلماسة:** كان عبيد الله المهدي قد فرّ من المشرق متخفياً، لكن أمره كُشف في "سجلماسة" (بالمغرب الأقصى) وسُجن على يد أمرائها من بني مدرار، وبعد السيطرة على القيروان، قاد أبو عبد الله الشيعي حملة عسكرية نحو سجلماسة سنة **297هـ**، ونجح في تحرير عبيد الله المهدي.
- **إعلان الخلافة:** عاد المهدي إلى "رقادة" في ربيع الآخر سنة **297هـ**، وهناك أُعلن رسمياً كأول خليفة فاطمي في بلاد المغرب، وتلقب بـ "أمير المؤمنين"، متحدياً بذلك صراحة الخلافة العباسية.
- **التخلص من رفقاء الأمس (نهاية أبي عبد الله الشيعي):** بمجرد استقرار السلطة في يد عبيد الله المهدي، برز خلاف عميق بين "شرعية التأسيس" (أبو عبد الله الشيعي) و"شرعية الحكم" (عبيد الله المهدي)، لينتهي هذا الصراع بقرار عبيد الله المهدي إعدام الداعي أبي عبد الله الشيعي وأخيه سنة **298هـ**، في خطوة سياسية قاطعة هدفت إلى ترسيخ السلطة المطلقة للخليفة الجديد وإنهاء أي ازدواجية في القيادة[1].

المحور الثاني: الإستراتيجية العسكرية والإدارية الفاطمية

شهدت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب تحولاً إستراتيجياً جذرياً بعد التأسيس، حيث أدرك الخلفاء الفاطميون خطورة الاعتماد المطلق على العصبية القبلية (كتامة)، مما دفعهم إلى إعادة هيكلة أجهزة الدولة العسكرية والإدارية بالاعتماد على فئات جديدة تدين بالولاء المطلق لشخص الخليفة.

- **كسر الاحتكار القبلي والاعتماد على الرقيق والصقالبة:** بمجرد استقرار السلطة، واجه الفاطميون تذمراً وطموحاً سياسياً متزايداً من قبائل كتامة، ولخلق توازن عسكري وسياسي، لجأت القيادة الفاطمية إلى تكثيف الاعتماد على العناصر الأجنبية والموالي، وقد برز بشكل لافت دور الرقيق الأسود والصقلبي في هيكلة الدولة الفاطمية، ولم يكن هذا

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج4، ص 48.

الاعتماد مجرد سد لنقص بشري، بل كان سياسة ممنهجة لضمان وجود قوة عسكرية وإدارية لا تمتلك عصبية قبلية محلية تنازع الخليفة في سلطته.

- **دور الموالي (الفتيان) في القيادة العسكرية العليا:** لم يقتصر دور الموالي والعبيد على الجندية البسيطة، بل تدرجوا ليصلوا إلى أعلى المراتب العسكرية، حيث كلفهم الخلفاء الفاطميون بقيادة أهم الحملات التوسعية وقمع التمردات الكبرى، ومن أبرز الأمثلة على ذلك، تكليف الخادم والمولى الفاطمي "ميسور الفتى" بقيادة الجيوش الفاطمية لمحاصرة مدينة فاس بأمر من الخليفة القائم بأمر الله .
- **العمليات العسكرية المعقدة وتمدد النفوذ:** استخدم الفاطميون قادتهم من الموالي لتوسيع نفوذهم في المغرب الأقصى ومواجهة القوى الإقليمية الأخرى (مثل حلفاء الأمويين .(تذكر المصادر التاريخية أدواراً مفصلية لشخصيات مثل "صندل الخادم"، بالإضافة إلى دور "ميسور الفتى" الذي اغتنم فرصة انشغاله في حصار فاس لتوجيه ضربات لقوى أخرى، مما أدى إلى إخراج موسى بن أبي العافية من مدينة نكور .
- **التوظيف الأمني والاستخباراتي الدقيق للموالي:** إلى جانب القيادة العسكرية، اعتمدت الإستراتيجية الفاطمية (وحتى في مرحلة الدعوة التي سبقتها) على الرقيق في المهام الأمنية الحساسة وجمع المعلومات الاستخباراتية، حيث يُظهر التاريخ المبكر للدعوة كيف كان الدعاة يشترون العبيد لتكليفهم بمهام الرصد والتجسس؛ حيث قام الداعي أبو سفيان (عند نزوله بموضع يُقال له تالا) بشراء عبد وجعله "عيناً له في المنطقة" يستعين به في أعماله الدقيقة، وقد تطور هذا التكتيك الأمني لاحقاً ليصبح ركيزة في إدارة الدولة الفاطمية لحماية أمنها الداخلي.

المحور الثالث: الصراع الإقليمي المزدوج

شكل تأسيس الخلافة الفاطمية في إفريقية (تونس) والمغرب الأوسط تهديداً وجودياً مباشراً للإمارة الأموية في الأندلس، ذلك أن الصراع لم يكن مجرد تنافس على رقعة جغرافية، بل كان صراعاً شاملاً أخذ ثلاثة أبعاد رئيسية: أيديولوجية، عسكرية بالوكالة، واستراتيجية بحرية.

1. المواجهة الأيديولوجية وحرب الألقاب:

أدرك الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) في الأندلس أن مواجهة خطر دولة تدعي "الخلافة" و"المهدية" لا يمكن أن يتم وهو يحمل لقب "أمير" فقط.

- **إعلان الخلافة :**في خطوة سياسية وعقائدية حاسمة، أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه "خليفة" وتلقب بـ "أمير المؤمنين" والناصر لدين الله، وذلك في ذي الحجة سنة 316هـ / 929م[1]، وقد كان هذا الإعلان رداً مباشراً على تنامي النفوذ الفاطمي، ويهدف إلى تحصين الجبهة الداخلية الأندلسية، ومنح حلفاء الأمويين في المغرب غطاءً شرعياً سنياً يواجهون به التمدد الإسماعيلي.

.2حرب الوكالة القبلية (صنهاجة الفاطمية ضد زناتة الأموية):

تجنب الطرفان الدخول في حرب نظامية برية مباشرة وفضلا سياسة "حرب الوكالة" لاستنزاف الخصم:

- **حلفاء الأمويين (زناتة وموسى بن أبي العافية):** استقطبت قرطبة قبائل زناتة في المغرب الأقصى والأوسط، وكان أبرز حلفائهم القائد "موسى بن أبي العافية" الذي أعلن ولاءه للخليفة الأموي وطرد العمال الفاطميين، وشكل درعاً واقياً لمنع وصول الفاطميين إلى السواحل المطلة على الأندلس.
- **الرد الفاطمي وتأسيس الدولة الزيرية (صنهاجة):** لمواجهة التمدد الزناتي الموالي للأندلس، استعان الفاطميون بالعدو التقليدي لزناتة، وهم قبائل "صنهاجة"، حيث كلف الفاطميون القائد "زيري بن مناد" الصنهاجي بوقف زحف زناتة، وسمحوا له ببناء مدينة "أشير" سنة **324هـ** لتكون قاعدة عسكرية متقدمة، وقد نجح ابنه "بلكين بن زيري" لاحقاً في توجيه ضربات قاصمة لحلفاء الأمويين، ليتشكل بذلك أساس "الدولة الزيرية" التي ستحكم المغرب لاحقاً باسم الفاطميين.

.3الاستراتيجية البحرية والعمليات الاستخباراتية:

ترافق الصراع البري مع سباق محموم للسيطرة على المضيق وموانئ المغرب.

---

[1] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب*، ج2، ص 157.

- **السيطرة على سبتة (319هـ):** أدرك الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر أن الدفاع عن الأندلس يبدأ من سواحل المغرب، فأرسل أسطوله للسيطرة على مدينة "سبتة" الاستراتيجية سنة **319هـ**، لتكون نقطة إنذار مبكر وقاعدة لإرسال الدعم لحلفائه من زناتة.
- **حرب الجواسيس والدعاية:** لم يقتصر الصدام على العسكر، بل تعداه إلى الدعاية والمخابرات. كما يشير د. محمود علي مكي في دراسته، فقد ترافقت العلاقات السياسية والتجارية بتوظيف دقيق للعناصر البشرية؛ حيث أرسلت قرطبة الدعاة والمبشرين لنشر المذهب السني المالكي وتحصين البربر ضد التشيع الفاطمي. وفي المقابل، اعتمد الفاطميون على شبكات سرية من الدعاة والجواسيس داخل الأندلس نفسها لمحاولة اختراق المجتمع الأندلسي وإثارة الفتن ضد الأمويين[1].

المحور الرابع: التوجه نحو المشرق وتداعياته الجيوسياسية على بلاد المغرب

لم تكن بلاد المغرب في الإستراتيجية الفاطمية سوى "نقطة ارتكاز" وتجميع للقوة، بينما كان الهدف العقائدي والسياسي الأسمى هو الوصول إلى المشرق، وتحديداً إسقاط الخلافة العباسية في بغداد. وقد ترك هذا الانتقال فراغاً سياسياً أدى إلى تحولات ديموغرافية ومذهبية كبرى في الغرب الإسلامي.

1. فتح مصر وتأسيس القاهرة المعزّية (358هـ - 362هـ):

بعد أن دانت السيطرة للفاطميين في المغرب وقمعوا الثورات الداخلية (مثل ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد)، تفرغ الخليفة "المعز لدين الله" لمشروع التوسع شرقاً.

- **حملة جوهر الصقلي:** تجلى هنا مجدداً نجاح إستراتيجية الفاطميين في الاعتماد على "الموالي"؛ حيث كلف المعز قائده العسكري الأبرز "جوهر الصقلي" بقيادة جيش ضخم (عماده قبائل كتامة) لفتح مصر. نجحت الحملة في دخول الفسطاط سلمياً سنة 358هـ / 969م.

---

[1] محمود علي مكي، "التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف"، *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد* 2، عدد 1–2 (1954): ص 111.

- **انتقال مركز الخلافة:** شرع جوهر الصقلي فور دخوله في بناء مدينة "القاهرة" والجامع الأزهر ليكون منارة للدعوة الإسماعيلية، وفي سنة 362هـ / 973م، غادر المعز لدين الله مدينة "المهدية" بإفريقية وانتقل بكافة أجهزة دولته وخزائنه ورفات أجداده إلى القاهرة، لتنتهي بذلك حقبة الإدارة الفاطمية المباشرة لبلاد المغرب[1].

2. تفويض السلطة وتأسيس الإمارة الزيرية (صنهاجة):

أدرك المعز استحالة حكم المغرب من القاهرة، فكان لابد من وكيل قوي وموثوق.

- **ولاية بلكين بن زيري:** قبيل مغادرته، عيّن المعز القائد "بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي" نائباً عنه على إفريقية والمغرب الأوسط، ليصبح بلكين المؤسس الفعلي للدولة الزيرية (التي حكمت باسم الفاطميين)، فيما بقيت صقلية وطرابلس تحت الإدارة الفاطمية المباشرة لضمان تأمين خطوط الملاحة.

3. الانفصال الزيري والقطيعة مع القاهرة:

مع مرور الزمن، وتحت ضغط البيئة المحلية، بدأت الروابط بين الزيريين في المهدية والفاطميين في القاهرة تتراخى بسبب تزايد الضغط السني، وصولا لإعلان الاستقلال.

- **الضغط المذهبي السني:** ظل المجتمع المغربي والإفريقي متمسكاً بمذهبه السني المالكي، ورفضت النخب الفقهية التشيع الفاطمي، وقد شكل هذا الرفض الشعبي ضغطاً متواصلاً على الأمراء الزيريين.
- **إعلان الاستقلال:** بلغ التوتر ذروته في عهد الأمير "المعز بن باديس" الزيري، الذي استجاب لضغوط الفقهاء والتوجه الشعبي، فأعلن رسمياً قطع الخطبة للفاطميين، وحرق أعلامهم، وأعلن الولاء للخلافة العباسية السنية ببغداد سنة 440هـ / 1048م.

4. العقاب الفاطمي والزلزال الديموغرافي (تغريبة بني هلال):

لم تتقبل القاهرة هذا التمرد الزيري، لكنها لم تكن قادرة على تسيير جيش نظامي إلى المغرب، فلجأت إلى حل إستراتيجي مدمر.

---

[1] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج1، ص 228.

- **إرسال القبائل العربية:** بإيعاز من الوزير الفاطمي "اليازوري" في عهد الخليفة المستنصر بالله، تم توجيه قبائل "بني هلال" و"بني سليم" (التي كانت تقطن بصعيد مصر) نحو الغرب، وقد منحهم الفاطميون إقطاعات في إفريقية على أن يفتكوها من الزيريين.
- **تداعيات الزحف الهلالي:** شكل هذا الزحف (في منتصف القرن الخامس الهجري) نقطة تحول كبرى؛ حيث انهزم جيش المعز بن باديس في معركة "حيدران" (443هـ)، واضطر الزيريون للتحصن بالمهدية، وقد أدى هذا الزحف إلى تعريب بلاد المغرب لغوياً وثقافياً بشكل عميق، ولكنه في الوقت ذاته مزق الوحدة السياسية للمنطقة، مما مهد لاحقاً لظهور قوى جديدة مثل "المرابطين" و"الموحدين".

4. الخلاصة:

شكلت المرحلة الفاطمية في الغرب الإسلامي تجربة سياسية قاسية وعميقة الأثر؛ فقد أنهت عصر الدويلات الصغيرة لتدخل المنطقة في طور الصراعات الإمبراطورية الكبرى. ورغم نجاح الفاطميين عسكرياً في فرض هيمنتهم بفضل عصبية "كتامة"، إلا أنهم فشلوا في تحقيق اندماج سوسيولوجي ومذهبي مع سكان المنطقة، مما أدى إلى ثورات دموية مستمرة. وقد مثّل انتقالهم إلى مصر تتويجاً لطموحهم المشرقي، ولكنه ترك خلفه مغرباً ممزقاً عُهد بإدارته للزيريين، مما مهد لدورة جديدة من الاستقلال السياسي بعباءة سنية.

5. أسئلة التقييم الذاتي:

1. كيف تفسر النجاح الاستثنائي لداعية مشرقي (أبو عبد الله الشيعي) في اختراق النسيج الاجتماعي المغاربي وتوظيف "العصبية القبلية" لكتامة لإسقاط دول قائمة؟ وما هي أبرز التصدعات التي واجهت هذا "التحالف المرحلي" بمجرد وصول الإمام المهدي وإعلانه قيام الدولة الفاطمية؟
2. حلل الأبعاد الاستراتيجية والعسكرية التي دفعت الخليفة "عبيد الله المهدي" إلى هجر "القيروان" و"رقادة" لتأسيس العاصمة البحرية المحصنة "المهدية"، مبرزاً

دور هذا الموقع المستحدث في إدارة الصراع الإقليمي المزدوج ضد الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق.

3. لم تكن ثورة "أبي يزيد مخلد بن كداد" (صاحب الحمار) مجرد تمرد عسكري عابر، بل جسّدت في جوهرها الرفض السوسيولوجي، الاقتصادي، والمذهبي العميق للسياسات الفاطمية. ناقش هذه المقولة، مبيناً أسباب التفاف قبائل زناتة السنية والخارجية حول زعامة إباضية (نكارية) في مواجهة المشروع الإسماعيلي.
4. شكل قرار انتقال الخليفة "المعز لدين الله" إلى مصر وتأسيس القاهرة تتويجاً للمشروع الفاطمي، ولكنه ترك خلفه فراغاً سياسياً في إفريقية والمغرب الأوسط. ما هي التداعيات السياسية لقرار استخلاف "الزيريين" على المنطقة، وكيف مهّد ذلك لتفكك التبعية للمركز الفاطمي لاحقاً؟

. المصادر والمراجع المعتمدة في المحاضرة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. ط3. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
3. القاضي النعمان. *افتتاح الدعوة*. ط2. تحقيق الدشراوي، فرحات. ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
4. مكي، محمود علي. "التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف". *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد* 2، عدد 1–2 (1954): 93–149.

المحور الثالث: عصر الخلافة الكبرى والتجاذبات الإقليمية

المحاضرة (09) الدولة الزيرية (362-547هـ):

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب الظروف السياسية التي أدت إلى صعود العصبية الصنهاجية كبديل محلي لحكم إفريقية نيابة عن الفاطميين.
- دراسة أسباب التصدع الداخلي في البيت الصنهاجي والذي أفرز انقسام الدولة (انفصال الحماديين في المغرب الأوسط).
- تحليل الدوافع الاقتصادية والمذهبية (ضغط فقهاء المالكية بالقيروان) التي دفعت "المعز بن باديس" لإعلان القطيعة مع الخلافة الفاطمية.
- التقييم النقدي لـ "الزحف الهلالي" باعتباره سلاحاً جيوسياسياً وعقاباً استراتيجياً غيّر البنية الديموغرافية والاقتصادية للغرب الإسلامي.

2. مقدمة المحاضرة:

مع اتخاذ الخليفة الفاطمي "المعز لدين الله" قراره التاريخي بالانتقال إلى مصر (362 هـ / 972 م)، أدرك بعبقريته السياسية استحالة حكم الغرب الإسلامي المضطرب عن بُعد. لذا، قرر تسليم مقاليد السلطة في إفريقية والمغرب الأوسط لأقوى حلفائه المحليين: الأمير "بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي". لم يكن هذا التسليم تنازلاً عن السيادة، بل "عقد نيابة" تلتزم فيه صنهاجة بحماية المصالح الفاطمية وقمع خصومهم (خاصة قبائل زناتة الموالية لأموي الأندلس). غير أن هذه النيابة تطورت تدريجياً، مع تعاقب الأجيال الزيرية وتنامي قوة النخبة السنية في القيروان، لتتحول إلى "قطيعة دموية" مع القاهرة، انتهت بتسليط الفاطميين للقبائل العربية البدوية (بني هلال وبني سُليم) على إفريقية، فيما عُرف بأكبر تحول ديموغرافي في تاريخ المنطقة.

3. العناصر الأساسية:

أ. التأسيس والنيابة (بلكين بن زيري وحرب العصبيات):

حين غادر الخليفة المعز لدين الله إلى مصر، ترك للأمير "بلكين بن زيري" تفويضاً لحكم إفريقية، وبذلك، ورثت الدولة الزيرية الناشئة عبء الدفاع عن المشروع الفاطمي في مواجهة التمدد الزناتي/الأموي القادم من الغرب، وقد أبدى بلكين إخلاصاً وشراسة منقطعة النظير، حيث قاد حملات عسكرية كبرى نحو المغربين الأوسط والأقصى، مُسقطاً حصون زناتة ومُخضعاً مدينة فاس (سنة 369 هـ)، وقد جسّدت هذه المرحلة ذروة الاصطدام بين عصبيتين بربريتين: "صنهاجة" (حليفة الفاطميين) و"زناتة" (حليفة الأمويين)[1].

---

[1] عبد الحميد، سعد زغلول, *تاريخ المغرب العربي: ج3، الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين* (منشأة المعارف بالإسكندرية, د.ت), ج3، ص 281.

ب. التصدع الداخلي: الانقسام الزيري - الحمادي (398 هـ):

لم يصمد التماسك الصنهاجي طويلاً أمام اتساع الرقعة الجغرافية والطموحات الشخصية، ففي عهد الأمير الزيري "باديس بن المنصور"، برز عمه "حمّاد بن بلكين" كقائد عسكري فذ أوكلت إليه حماية الثغور الغربية (المغرب الأوسط). وبمرور الوقت، استقل حماد فعلياً وبنى عاصمة محصنة لنفسه هي "قلعة بني حماد "(398هـ)[1]، ورغم المحاولات العسكرية لباديس لإخضاع عمه، إلا أن الأمر انتهى بتكريس الانقسام؛ لتُصبح إفريقية (تونس) تحت حكم "الزيريين"، والمغرب الأوسط تحت حكم "الحماديين"[2]، مما أضعف الجبهة الصنهاجية وجعلها أكثر عرضة للاختراقات اللاحقة.

ج. الانقلاب السني والقطيعة المعزّية (440 هـ):

تُعد فترة حكم الأمير "المعز بن باديس" (406 - 454هـ) نقطة التحول الأخطر في تاريخ الدولة الزيرية، حيث تولى المعز الحكم طفلاً، وتأثر بشدة بمحيطه القيرواني السني، وخاصة بعلماء المالكية الذين مارسوا ضغوطاً شعبية هائلة للتخلص من الهيمنة الشيعية، وبالفعل بدأت بوادر القطيعة بمذابح شعبية ضد الشيعة الإسماعيلية في القيروان (سنة 407 هـ)[3]، ثم تدرجت نحو استقلال اقتصادي عبر سك "دينار زيري" خالص خالٍ من الشعارات الفاطمية[4].

في سنة 441 هـ (1049 م)، اتخذ المعز بن باديس قراره الحاسم: قطع الدعاء للخليفة الفاطمي (المستنصر بالله) من على منابر إفريقية، وإعلان الولاء الروحي للخلافة العباسية السنية في بغداد، ولم يكن هذا مجرد تحول مذهبي، بل إعلاناً صريحاً بالاستقلال السياسي التام عن القاهرة[5].

د. العقاب الجيوسياسي: الزحف الهلالي ومعركة حيدران (443 هـ):

كان رد الفعل الفاطمي على تمرد المعز بن باديس استراتيجياً ومدمراً، فبدلاً من إرسال جيش نظامي مكلف، أشار الوزير الفاطمي "اليازوري" على الخليفة المستنصر بإطلاق سراح القبائل العربية البدوية الشرسة (بني هلال وبني سُليم) التي كانت محتجزة في صعيد مصر، وتوجيهها نحو إفريقية بتفويض مفتوح لإقطاع ما يغلبون عليه[6].

شكل هذا التدفق البدوي الكثيف "طوفان بشري" اجتاح الحواضر الزيرية، حيث التقى جيش المعز بن باديس الصنهاجي النظامي بجحافل الأعراب في "معركة حيدران" الفاصلة (سنة 443 هـ / 1052 م). ورغم التفوق العددي للزيريين، تعرضوا لهزيمة ساحقة ومذلة بسبب انعدام الدافعية وتكتيكات البدو. أدت هذه الهزيمة إلى سقوط القيروان وخرابها، مما اضطر المعز بن باديس للفرار والتحصن في

---

[1] هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في العهد الزيري (من القرن 10 إلى القرن 12)*، ترجمة الساحلي، حمادي (دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج1، ص 144.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 210.

[3] ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ج8، ص 114.

[4] ابن عذاري المراكشي، *البيان المغرب*، ج2، ص 269.

[5] روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، ج1، ص 230.

[6] النويري، *نهاية الأرب*، ج24، ص 116.

العاصمة البحرية "المهدية". وبهذا، انتهت السلطة الفعلية للدولة الزيرية على الدواخل، واقتصرت على أشرطة ساحلية محاصرة، بينما تُركت البلاد لـ "تغريبة" غيّرت وجهها العمراني والديموغرافي بشكل جذري[1].

4. الخلاصة:

إن دراسة المسار الزيري تقدم نموذجاً مكثفاً لدورة حياة الدول في الغرب الإسلامي، حيث نجد أنّ الدولة الزيرية وُلدت كأداة لحماية إمبراطورية خارجية، ثم تكيفت مع محيطها السوسيولوجي والمذهبي (السني) لتصنع استقلالها، غير أن هذا الاستقلال اصطدم بمتغير جيوسياسي غير تقليدي (الزحف الهلالي). إذن لم يكن سقوط الزيريين سقوطاً سياسياً كلاسيكياً، بل كان "انهياراً مجتمعياً وعمرانياً"؛ حيث دُمرت البنية الزراعية والحضرية التي أرساها الأغالبة والفاطميون، وعادت إفريقية إلى طور البداوة والتشرذم الذي سيمهد لاحقاً لظهور قوى جديدة من أقصى الغرب (الموحدون).

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

- حلل التناقض البنيوي بين التزام "بلكين بن زيري" بالنيابة الفاطمية الشيعية، وبين طبيعة المجتمع الإفريقي القيرواني ذي الأغلبية السنية المالكية، موضحاً كيف أدى هذا التناقض إلى سقوط الدولة لاحقاً.
- ناقش الأبعاد الاستراتيجية التي دفعت الخلافة الفاطمية لاستخدام "القبائل الهلالية" بدلاً من الجيش النظامي كأداة لعقاب المعز بن باديس.
- بالاعتماد على نظرية ابن خلدون، كيف تفسر هزيمة الجيش الزيري النظامي الضخم أمام القبائل البدوية غير النظامية في معركة "حيدران"؟

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن الأثير. *الكامل في التاريخ*. ط1. دار الكتب العلمية، 1987.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
3. ابن عذاري المراكشي. *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. ط3. تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال. دار الثقافة، 1983.
4. النويري. *نهاية الأرب في فنون الأدب*. م 24، تحقيق عبد المجيد ترحيني. دار الكتب العلمية، 1997.
5. روجي إدريس، هادي. *الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في العهد الزيري (من القرن 10 إلى القرن 12)*. ترجمة الساحلي، حمادي. دار الغرب الإسلامي، 1992.

---

[1] سعد زغلول، *تاريخ المغرب العربي*، ج3، ص 281.

6. زغلول، عبد الحميد، سعد. *تاريخ المغرب العربي: ج3، الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين*. منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت.

المحور الثالث: عصر الخلافة الكبرى والتجاذبات الإقليمية

المحاضرة (10) الدولة الحمادية (362-547هـ):

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب الدوافع السياسية والعسكرية التي أدت إلى انشقاق "حماد بن بلكين" عن السلطة المركزية الزيرية وتأسيس كيانه المستقل.
- تحليل الأهمية الاستراتيجية والحضارية لتأسيس "قلعة بني حماد" كعاصمة جبلية محصنة.
- تتبع مسار "المرونة الجيوسياسية" الحمادية في التعامل مع "الزحف الهلالي" وتوظيفهم في الصراعات الداخلية، خلافاً للصدام الزيري المباشر.
- دراسة دوافع وتداعيات نقل العاصمة إلى "بجاية" (الناصرية)، وتحول الدولة الحمادية إلى قوة بحرية وتجارية كبرى في الحوض الغربي للمتوسط.

2. مقدمة المحاضرة:

ارتبطت نشأة الدولة الحمادية في المغرب الأوسط بالحاجة الماسة للدولة الزيرية (في إفريقية) لتأمين حدودها الغربية ضد هجمات قبائل زناتة الموالية لأمويي الأندلس، ولتحقيق هذه الغاية، أسند الأمير الزيري "باديس بن المنصور" حكم تلك التخوم لعمه القائد المحنك "حمّاد بن بلكين"، غير أن هذا القرار العسكري سرعان ما تحول إلى مشروع انفصالي متكامل الأركان؛ ففي سنة 398 هـ، شرع حماد في بناء عاصمته المحصنة "قلعة بني حماد"، ليعلن لاحقاً استقلاله التام.

لقد نجحت الدولة الحمادية طيلة قرن ونصف (398 - 547 هـ) في الصمود أمام أعتى العواصف، متكيفة مع صدمة "الزحف الهلالي" بنقل مركز ثقلها نحو الساحل (بجاية)، لتصنع نهضة حضارية واقتصادية فارقة، قبل أن تُطوى صفحتها على يد القوة التوحيدية الصاعدة من أقصى الغرب (الموحدون).

3. العناصر الأساسية:

أ. التأسيس والانفصال (من التفويض إلى القطيعة):

بدأت الإرهاصات الأولى للدولة الحمادية بتفويض من الأمير الزيري "باديس" لعمه "حماد بن بلكين" لإخضاع قبائل زناتة المتمردة في المغرب الأوسط (سنة 387 هـ)، حيث أثبت حماد

كفاءة عسكرية نادرة، مما منحه نفوذاً واسعاً وشعبية بين قبائل صنهاجة الغربية، ولتأمين مكتسباته، اختار حماد موقعاً استراتيجياً منيعاً في جبال تيطري (جبل المعاضيد) ليؤسس مدينته "قلعة بني حماد "سنة 398 هـ (1007 م)[1]، ولم يلبث حماد أن استشعر قوته، فرفض أوامر باديس بتقسيم ولايته، وأعلن التمرد والانفصال عن المركز الزيري (سنة 405 هـ)[2].

ومن إضفاء طابع الشرعية والمكايدة السياسية، أعلن حماد ولاءه للخلافة العباسية السنية، قاطعاً الدعاء للفاطميين الشيعة[3]. ورغم الحملات العسكرية الزيرية العنيفة التي كادت تسقط القلعة، إلا أن الوفاة المفاجئة للأمير باديس (406 هـ) أنقذت المشروع الحمادي، لِيُعقد صلحٌ لاحقاً أقرّ رسمياً بتقسيم النفوذ الصنهاجي بين الزيريين شرقاً والحماديين غرباً.

ب. قلعة بني حماد (العاصمة الجبلية والازدهار الحضاري):

لم تكن قلعة بني حماد مجرد حصن عسكري، بل تحولت إلى حاضرة حضارية واقتصادية استقطبت العلماء والتجار من الأندلس والقيروان، خاصة بعد الخراب الذي ألحقه الزحف الهلالي بإفريقية. بُنيت فيها القصور الباذخة (كقصر البحر وقصر المنار) والمساجد الكبرى. وقد وفر موقعها الجبلي حماية طبيعية جعلتها خزانة آمنة للثروات ونقطة ارتكاز للسيطرة على الطرق التجارية الرابطة بين الصحراء والساحل.

ج. الزحف الهلالي والتحول الجيوسياسي (بناء بجاية):

على عكس الزيريين الذين دخلوا في صدام مباشر ومدمر مع القبائل الهلالية (معركة حيدران)، اتبع الحماديون سياسة "الاحتواء والتوظيف البراغماتي" في بدايات الزحف، فقد تحالف الأمير الحمادي "بلكين بن محمد" ثم "الناصر بن علناس" مع بعض بطون الأعراب (كقبائل الأثبج) لضرب خصومهم من الزيريين وزناتة، غير أن هذا التحالف كان محفوفاً بالمخاطر، ومع تزايد الضغط الديموغرافي والعسكري للأعراب على السهول المحيطة بالقلعة، أدرك الأمير "الناصر بن علناس"ضرورة إيجاد منفذ آمن، ففي سنة 459 هـ (1067م)، أسس الناصر مدينة "بجاية "(وسماها الناصرية) على الساحل المتوسطي، حيث قام ابنه "المنصور بن الناصر "(حوالي 483 هـ)، بنقل عاصمة الدولة ومؤسساتها من القلعة المحاصرة بالبدو إلى بجاية[4]، الأمر الذي شكل تحولاً جيوسياسياً هائلاً؛ فخرجت الدولة

---

[1] رشيد بورويبة، *الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها* (ديوان المطبوعات الجامعية، 1977)، ص 20.

[2] روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، ج1، ص 146.

[3] روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، ج1، ص 146.

[4] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 232.

الحمادية من عزلتها الجبلية لتتحول إلى قوة بحرية ضاربة، تمتلك أسطولاً تجارياً وحربياً سيطر على خطوط الملاحة، وجعل من بجاية "لؤلؤة الغرب الإسلامي" وقبلة للعلماء والتجار الأوروبيين والأندلسيين.

د. النهاية والسقوط أمام المد الموحدي (547 هـ):

بلغت بجاية في عهد أمرائها الأواخر (خاصة العزيز بن المنصور وابنه يحيى) ذروة الترف والازدهار الاقتصادي، لكن هذا ترافق مع ترهل عسكري وسياسي، وفي هذه الأثناء، كانت قوة "الموحدين" تتشكل كطوفان في المغرب الأقصى بقيادة عبد المؤمن بن علي، ففي سنة 547 هـ (1152 م)، زحفت الجيوش الموحدية نحو المغرب الأوسط، وأمام الانهيار المعنوي، فرّ آخر الأمراء الحماديين "يحيى بن العزيز" من بجاية نحو قسنطينة، ليدخل عبد المؤمن المدينة سلماً وبلا مقاومة تُذكر، وبذلك سقطت الدولة الحمادية، وتم إدماج المغرب الأوسط ضمن الإمبراطورية الموحدية الكبرى، لتنطوي صفحة أزهى الدول الصنهاجية المستقلة[1].

4. الخلاصة:

قدمت الدولة الحمادية نموذجاً مبهراً للقدرة على "التكيف الاستراتيجي"؛ فقد بدأت كولاية حدودية، ثم تحولت إلى دولة جبلية محصنة (القلعة) لدرء الخطر الزناتي، ثم أعادت ابتكار نفسها كإمبراطورية بحرية وتجارية (بجاية) للهروب من الخناق الهلالي. لقد نجح الحماديون في الحفاظ على استقلالية المغرب الأوسط ورخائه الاقتصادي والعمراني في أحلك فترات الغرب الإسلامي تمزقاً، تاركين إرثاً معمارياً وحضارياً لا تزال شواهده (كآثار القلعة وبجاية) قائمة، قبل أن يُسلموا المشعل حتمياً للمشروع التوحيدي الشامل.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. قارن بين استراتيجية "المعز بن باديس" الزيري واستراتيجية "الناصر بن علناس" الحمادي في التعامل مع الزحف الهلالي، مبيناً أثر ذلك على استقرار دولتيهما.
2. ناقش الدوافع الجغرافية، الأمنية، والاقتصادية التي حتمت على الحماديين نقل العاصمة من "قلعة بني حماد" إلى "بجاية."
3. كيف وظّف حماد بن بلكين "الورقة المذهبية" (إعلان الولاء للعباسيين تارة، والعودة للفاطميين تارة أخرى) كأداة لخدمة استقلاله السياسي؟

---

[1] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص ص 235-236.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. بورويبة، رشيد. *الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها*. ديوان المطبوعات الجامعية، 1977.
3. روجي إدريس، هادي. *الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في العهد الزيري (من القرن 10 إلى القرن 12)*. ترجمة الساحلي، حمادي. دار الغرب الإسلامي، 1992.

المحور الرابع: عصر الإمبراطوريات العظمى وتوحيد العدوتين

المحاضرة (11) دولة المرابطين:

1. أهداف المحاضرة:

- تحليل الجذور السوسيولوجية والدينية لنشأة الحركة المرابطية في الصحراء الكبرى (دور القبائل الصنهاجية اللمتونية ومؤسسة "الرباط").
- تتبع مسار تحول الحركة من الإطار الدعوي الإصلاحي إلى بناء إمبراطورية سياسية مركزية وتأسيس عاصمة إمبراطورية (مراكش.(
- التقييم الاستراتيجي للتدخل المرابطي في الأندلس (معركة الزلاقة 479 هـ) وانتقالهم من صفة "المنقذ" إلى صفة "الحاكم والموحّد."
- استيعاب أسباب السقوط السريع للإمبراطورية المرابطية، متمثلة في الجمود الفقهي وتآكل العصبية أمام المد العقائدي الموحدي.

2. مقدمة المحاضرة:

شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تحولاً بنيوياً غير مسبوق في تاريخ الغرب الإسلامي؛ فبعد قرون من التشرذم السياسي بين إمارات ودويلات متناحرة، برزت قوة توحيدية عظمى من أعماق الصحراء الكبرى، حيث اعتمدت "الدولة المرابطية" في صعودها على تلاحم استثنائي بين "العصبية القبلية" لبطون صنهاجة (لمتونة، جدالة، ومسوفة) و"الشرعية الدينية" المستمدة من المذهب المالكي السني الصارم، ولم يكتفِ المرابطون بتوحيد المغرب الأقصى والقضاء على الكيانات البدعية (كبرغواطة)، بل تجاوزوا ذلك ليعبروا مضيق جبل طارق، منقذين الأندلس من السقوط المبكر في يد الممالك المسيحية، ومؤسسين بذلك أول "إمبراطورية عابرة للقارات" توحد العدوتين تحت راية سياسية ومذهبية واحدة.

3. العناصر الأساسية:

أ. البدايات: أزمة الصحراء، يحيى بن إبراهيم، ومؤسسة "الرباط" (427 هـ):

عاشت القبائل الصنهاجية في الصحراء الكبرى حالة من التمزق القبلي والجهل بتعاليم الإسلام السمح، وبدأت نقطة التحول التاريخية إثر عودة الزعيم الجدالي "يحيى بن إبراهيم" من رحلة الحج (حوالي 427 هـ)، حيث التقى بالفقيه المالكي "أبو عمران الفاسي"

في القيروان، وطلب منه إرسال معلم يفقه قبائله، وقد أفضى هذا الطلب إلى انتداب الفقيه والمصلح الصارم "عبد الله بن ياسين[1]، غير أنّ هذا الفقيه اصطدم في البداية بنفور القبائل من صرامته الفقهية، فاعتزل مع نفر قليل من أتباعه المخلصين في جزيرة (يُرجح أنها بنهر السنغال أو حوض موريتانيا)، مؤسساً "الرباط"، ولم يكن هذا الرباط مجرد خلوة روحية، بل "مدرسة لتخريج الكوادر العسكرية والعقائدية"؛ حيث صهر ابن ياسين أتباعه في بوتقة طاعة عمياء وعقيدة قتالية صلبة، ولما تكاثر عددهم، أطلق عليهم اسم "المرابطين[2]"، وبدأ بهم حركة توحيد عنيفة وصارمة لقبائل الصحراء (جدالة ثم لمتونة) جاعلاً الزعامة السياسية في أمراء لمتونة (يحيى بن عمر ثم أخيه أبو بكر بن عمر)، بينما احتفظ لنفسه بالسلطة الروحية العليا[3].

ب. الانشطار القيادي وتأسيس الإمبراطورية (يوسف بن تاشفين وبناء مراكش):

بعد استشهاد عبد الله بن ياسين (451 هـ) في حربه ضد برغواطة، انفرد الأمير "أبو بكر بن عمر اللمتوني" بالقيادة، غير أن اندلاع فتن في عمق الصحراء أجبره على التوجه جنوباً لإخمادها، تاركاً قيادة المغرب الأقصى لابن عمه القائد المحنك "يوسف بن تاشفين "(سنة 463 هـ)، وقد أظهر يوسف بن تاشفين عبقرية سياسية وعسكرية استثنائية؛ فشرع في تنظيم الجيش، وابتكر نظام "القبائل المخزنية"، وبدأ في تأسيس عاصمة جديدة ومستقلة هي "مراكش "لتكون مركزاً للإمبراطورية الصاعدة. ولما عاد أبو بكر بن عمر من الصحراء، أدرك أن السلطة الفعلية قد استقرت ليوسف، فتنازل له سلمياً في مشهد سياسي نادر، عائداً لجهاد الوثنيين في إفريقيا جنوب الصحراء[4]، وبتولي يوسف بن تاشفين، دخلت الدولة طور "المأسسة الإمبراطورية"، حيث تم القضاء على كافة الكيانات المحلية (الزناتية وغيرها) وتوحيد كامل المغرب الأقصى وصولاً إلى تلمسان شرقاً.

ج. التدخل في الأندلس: معركة الزلاقة (479 هـ) وضم الطوائف:

في هذه الأثناء، كانت الأندلس تعيش أحلك فتراتها تحت حكم "ملوك الطوائف" الذين مزقتهم الخلافات وأنهكتهم دفع الجزية للملك القشتالي "ألفونسو السادس"، وبلغ الخطر ذروته بسقوط طليطلة (478 هـ / 1085 م)، وأمام هذا التهديد الوجودي، استنجد المعتمد

---

[1] ابن عذاري المراكشي، *البيان المُغرب*، ج4، ص ص 7-8.

[2] Bennison, *The Almoravid and Almohad Empires*, p 49.

[3] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص ص 243-244.

[4] ابن عذاري المراكشي، *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج4، ص 18.

بن عباد (أمير إشبيلية) وعلماء الأندلس بيوسف بن تاشفين .عبر يوسف البحر بجيش جرار، والتقى بالجيش القشتالي في "معركة الزلاقة "الفاصلة (479 هـ / 1086 م)[1].

استخدم المرابطون تكتيكات عسكرية غير مألوفة للأندلسيين (كالاحتياط العسكري واستخدام الطبول)، محققين انتصاراً ساحقاً أوقف الزحف المسيحي لقرون، ثم عاد يوسف إلى المغرب، لكن ملوك الطوائف سرعان ما عادوا لتخاذلهم. وبناءً على فتاوى شرعية من كبار علماء العصر (وعلى رأسهم الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي) تجيز له خلعهم لخيانتهم وتقاعسهم عن الجهاد، عبر يوسف تاشفين مجدداً في حملات متتالية (483 هـ وما بعدها)، ملغياً عصر الطوائف، ثم قام بضم الأندلس رسمياً كولاية تابعة للإمبراطورية المرابطية الكبرى[2].

د. الجمود الفقهي وتآكل المشروع المرابطي:

بلغت الدولة أوجها في عهد الأمير "علي بن يوسف بن تاشفين"، لكنها حملت في طياتها بذور فنائها. فقد سيطرت طبقة "فقهاء الفروع" (علماء المالكية المقلدين) على مفاصل القرار السياسي، مما أدى إلى حالة من "الجمود الفكري والتعصب" بلغت حد إصدار أوامر رسمية بإحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي لرفضهم البعد الصوفي والفلسفي فيه[3]. هذا التزمت، مترافقاً مع ترف النخبة اللمتونية الحاكمة وتراجع حماستها البدوية الأولى، خلق فجوة عميقة مع المجتمع، مما مهد الطريق لظهور حركة "الموحدين" بقيادة ابن تومرت، والتي استغلت هذا الجمود الفقهي لإسقاط المرابطين من الداخل العقائدي والقبلي (عصبية مصمودة).

4. الخلاصة:

تمثل الإمبراطورية المرابطية قمة النضج السياسي والعسكري في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط. لقد برهنت هذه التجربة على قدرة الأطراف الصحراوية على تجديد دماء الحضارة الإسلامية المنهكة في المراكز (الأندلس)، وبفضل المزاوجة بين الصرامة الفقهية المالكية والعصبية اللمتونية، صاغ يوسف بن تاشفين خريطة سياسية جديدة أنقذت الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية. غير أن تحول هذه الصرامة الفقهية إلى استبداد

---

[1] Abun-Nasr, *A History of the Maghrib in the Islamic Period*, pp 82-83.

[2] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج6، ص 249.

[3] ابن عذاري المراكشي، *البيان المُغرب*، ج4، ص ص 49-50.

فكري وتحكم طبقي، عجل بسقوط هذه الإمبراطورية العظيمة أمام مشروع عقائدي وتوحيدي جديد وأكثر ديناميكية.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. حلل الدور الوظيفي لمؤسسة "الرباط" الذي أسسه عبد الله بن ياسين في تحويل قبائل صنهاجة من الرعوية والتشتت إلى بناء مشروع سياسي وعسكري منظم.
2. كيف وظّف يوسف بن تاشفين "الشرعية الفقهية" (فتاوى علماء المشرق والأندلس) و"الشرعية الرمزية" (الولاء للخلافة العباسية) لتبرير القضاء على ملوك الطوائف وضم الأندلس؟
3. ناقش العلاقة الجدلية بين "الاحتكار الفقهي" لعلماء الفروع والتآكل الداخلي للإمبراطورية المرابطية في عهد علي بن يوسف.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في المحاضرة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. ابن عذاري المراكشي. *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. تحقيق عباس، إحسان. دار الثقافة، 1983.
3. Abun-Nasr, Jamil M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period*. Cambridge University Press, 1987.
4. Bennison, Amira K. *The Almoravid and Almohad Empires*. Edinburgh University Press, 2016.

المحور الرابع: عصر الإمبراطوريات العظمى وتوحيد العدوتين

المحاضرة (12) دولة الموحدين:

1. أهداف المحاضرة:

- تحليل المرتكزات الأيديولوجية (التوحيد والمهدوية) التي اعتمد عليها "ابن تومرت" لتفكيك الشرعية المرابطية وبناء مشروع سياسي بديل.
- دراسة العبقرية العسكرية والتنظيمية لـ "عبد المؤمن بن علي" في تحويل الدعوة من الطور النظري إلى تأسيس إمبراطورية توحد كامل الغرب الإسلامي لأول مرة.
- استيعاب الدور الجيوسياسي للموحدين في الأندلس، وذروة مجدهم العسكري (معركة الأرك 591 هـ) ونهضتهم الفكرية والعمرانية.
- التقييم النقدي لأسباب الانكسار الاستراتيجي في "معركة العقاب" (609 هـ)، وكيف مهدت لسقوط الإمبراطورية وتفككها إلى ثلاث دويلات.

2. مقدمة المحاضرة:

إذا كانت الإمبراطورية المرابطية قد قامت على أكتاف قبائل "صنهاجة" الصحراوية استناداً إلى المذهب المالكي والفروع الفقهية، فإن الإمبراطورية الموحدية التي ورثتها قد انطلقت من نقيضها الجغرافي والمذهبي؛ فقد برزت من أعالي جبال الأطلس الكبير معتمدة على العصبية القبلية لـ "مصمودة"، ومستندة إلى دعوة عقائدية مركبة تجمع بين "التوحيد" الأشعري الصارم و"العصمة المهدوية"، ولقد نجح الموحدون في تأسيس أكبر كيان سياسي عرفه الغرب الإسلامي في تاريخه، حيث وحدوا المنطقة الممتدة من برقة (بليبيا) شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وصولاً إلى الأندلس شمالاً، مؤسسين لنهضة فلسفية وعمرانية كبرى، قبل أن تؤدي الهزائم العسكرية المفصلية والتمردات الداخلية إلى تآكل هذا الصرح الإمبراطوري العظيم.

3. العناصر الأساسية:

أ. التأطير الأيديولوجي وتأسيس النواة الأولى (دعوة ابن تومرت):

تبدأ القصة برحلة علمية قام بها الشاب المصمودي "محمد بن تومرت" إلى المشرق، حيث تشبع بعلم الكلام والفلسفة وعقيدة الأشاعرة (متأثراً بالإمام الغزالي)[1]، ولما عاد إلى

---

[1] النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ج24، ص 152.

المغرب (حوالي 510 هـ)، صُدم بسيطرة النزعة الفقهية المقلدة للمرابطين وما اعتبره "تجسيداً وتفويضاً" في العقيدة، حيث شرع ابن تومرت في بث دعوته الإصلاحية الصارمة القائمة على مبدأ "التوحيد"(تنزيه الله عن صفات التجسيم، ومن هنا جاء اسم الموحدين)، ولما تعرض للمضايقة في مراكش، انسحب إلى معقله الجبلي الحصين في "تينمل"(بالأطلس الكبير) بين قبائل مصمودة، وهناك، أضاف لدعوته بُعداً سياسياً خطيراً بادعائه أنه "المهدي المنتظر المعصوم"سنة 515 هـ (1121م)[1].

منحت هذه "المهدوية" لابن تومرت سلطة دينية مطلقة مكنته من صهر قبائل مصمودة وتأطيرهم في تراتبية تنظيمية هرمية حديدية (مجلس العشرة، ومجلس الخمسين)، معلناً الجهاد ضد المرابطين باعتبارهم "مُجسمة ومبدلين للدين[2].

ب. الانتقال للطور العسكري وتوحيد الغرب الإسلامي (عبد المؤمن بن علي):

توفي ابن تومرت سنة 524 هـ بعد هزيمة قاسية لجيشه في معركة "البحيرة" أمام المرابطين[3]، وهنا برزت العبقرية السياسية لخليفته، الشاب الزناتي "عبد المؤمن بن علي" (الذي لُقب بأمير المؤمنين). وسرعان ما أدرك عبد المؤمن استحالة إسقاط المرابطين بهجوم مباشر، فابتكر استراتيجية "حرب العصابات الجبلية والتطويق"؛ حيث قضى سنوات في إخضاع قبائل الجبال المحيطة بمراكش وعزل العاصمة المرابطية عن عمقها الصحراوي. تكللت خطته بالنجاح مع اجتياح مراكش سنة 541 هـ (1147 م) والقضاء نهائياً على الدولة المرابطية[4]، ولم يتوقف طموح عبد المؤمن عند المغرب الأقصى، بل قاد حملات عسكرية كبرى نحو الشرق، فأسقط الدولة الحمادية في بجاية (547 هـ)، ثم زحف نحو إفريقية (تونس الحالية) وطرد منها النورمانديين المسيحيين سنة 555 هـ[5]. وبذلك، حقق عبد المؤمن إنجازاً غير مسبوق في التاريخ من خلال توحيد كامل أقطار المغرب الإسلامي تحت راية سلطة مركزية واحدة.

---

[1] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس*، ص 173.

[2] ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس*، ص 173.

[3] عبد الواحد المراكشي، *المُعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (دار الفرجاني، 1994)، ص 166.

[4] أبو بكر بن علي البيدق، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين* (دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971)، ص ص 63-64.

[5] ابن عذاري المراكشي، *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب: القسم الخاص بالموحدين*، تحقيق الكتاني، إبراهيم وآخرون (دار الغرب الإسلامي، 1985)، ص 64.

ج. ذروة المجد الاستراتيجي في الأندلس والنهضة الحضارية:

ورث عبد المؤمن والأمراء من بعده (خاصة أبو يعقوب يوسف وابنه أبو يوسف يعقوب المنصور) العبء الأندلسي، ولذلك يمكن اعتبار الأندلس ساحة الاستنزاف الحقيقية لجيوش الموحدين، ورغم كل هذه التحديات، بلغت الإمبراطورية أوج مجدها العسكري في عهد "يعقوب المنصور" إثر انتصاره الساحق على تحالف الممالك المسيحية (بقيادة ألفونسو الثامن) في معركة الأرك (Alarcos) سنة 591 هـ (1195 م)[1]، وهو انتصار أمّن الوجود الإسلامي في الأندلس لعقود إضافية.

لم تقتصر العظمة الموحدية على السيف، بل أسسوا لنهضة عمرانية وفكرية استثنائية؛ فبرز فلاسفة وأطباء كبار كـ "ابن طفيل" و"ابن رشد" الذي حظي برعاية أبي يعقوب يوسف. وشيدوا معالم معمارية خالدة تشهد على القوة الإمبراطورية مثل صومعة الكتبية بمراكش، والخيرالدة بإشبيلية، وصومعة حسان بالرباط.

د. الانكسار الاستراتيجي (معركة العقاب) وبداية التفكك:

بدأ العد التنازلي للإمبراطورية في عهد الخليفة "محمد الناصر"، فقد استغل البابا إنوسنت الثالث حالة التراخي الإسلامي ليعلن "حرباً صليبية" عبأ فيها كل ممالك أوروبا المسيحية، والتقى الجيشان في "معركة العقاب (Las Navas de Tolosa) "سنة 609 هـ (1212م)[2]، وبسبب سوء الإدارة العسكرية للناصر، وخيانة بعض الفرق الأندلسية الناقمة، تعرض الجيش الموحدي لإبادة شبه كاملة.

شكلت "العقاب" زلزالاً عسكرياً ونفسياً كسر شوكة الموحدين، وتزامن هذا الوهن الخارجي مع استنزاف داخلي مدمر تمثل في ثورة "بني غانية" (من بقايا المرابطين) الذين خربوا إفريقية والمغرب الأوسط لعقود، وتحت وطأة هذه الضربات، عجز خلفاء الموحدين عن حفظ وحدة الإمبراطورية، فتفككت تباعاً خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري لترثها ثلاث دول كبرى: الحفصيون في إفريقية، والزيانيون في المغرب الأوسط، والمرينيون في المغرب الأقصى الذين وجهوا الضربة القاضية لآخر خلفاء الموحدين بمراكش سنة 668 هـ.

---

[1] عبد الواحد المراكشي، *المُعجب في تلخيص أخبار المغرب*، ص 234.

[2] Bennison, *The Almoravid and Almohad Empires*, p327.

4. الخلاصة:

جسدت الإمبراطورية الموحدية أقصى درجات النضج السياسي والتنظيمي في تاريخ الغرب الإسلامي، مقدمة نموذجاً فذاً للقدرة على دمج العقيدة (المهدوية) بالعصبية (مصمودة) لبناء دولة مركزية قوية. لقد نجح الموحدون في صد العدوان المسيحي في الأندلس والمتوسط، وأسسوا لنهضة فلسفية وعمرانية كبرى. غير أن ضخامة الرقعة الجغرافية للإمبراطورية، مقترنة باحتكار السلطة، وتلاشي الحماسة الأيديولوجية الأولى، ثم الانكسار العسكري المروع في "العقاب"، جعلت استمرار هذا الكيان مستحيلاً، لتُطوى صفحة الإمبراطوريات العظمى ويبدأ الغرب الإسلامي عصر الانقسام الإقليمي الذي سيرسم الحدود الحديثة للمنطقة.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. كيف تمكن "ابن تومرت" من توظيف دعوى "المهدوية" والعقيدة الأشعرية لسحب الشرعية الدينية والسياسية من دولة المرابطين السنية؟
2. تتبع الاستراتيجية العسكرية والجيوسياسية التي اعتمدها "عبد المؤمن بن علي" لتوحيد الغرب الإسلامي من مراكش إلى طرابلس.
3. قارن بين الأثر الاستراتيجي لانتصار الموحدين في "معركة الأرك" وهزيمتهم الكارثية في "معركة العقاب" على مسار الوجود الإسلامي في الأندلس.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن أبي زرع الفاسي. *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*. دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
2. ابن عذاري المراكشي. *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب: القسم الخاص بالموحدين*. تحقيق الكتاني، إبراهيم وآخرون. دار الغرب الإسلامي، 1985.
3. البيدق، أبو بكر بن علي. *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*. دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.
4. النويري. *نهاية الأرب في فنون الأدب*. م 24، تحقيق عبد المجيد ترحيني. دار الكتب العلمية، 1997.
5. عبد الواحد المراكشي. *المُعجب في تلخيص أخبار المغرب*. تحقيق محمد زينهم محمد عزب. دار الفرجاني، 1994.
6. Bennison, Amira K. *The Almoravid and Almohad Empires*. Edinburgh University Press, 2016.

المحور الرابع: دول الوراثة الموحدية وتجذر الكيانات الإقليمية

المحاضرة (13) الدولة الحفصية:

1. أهداف المحاضرة:

- استيعاب الظروف السياسية والأيديولوجية (تنكر المأمون للمهدوية) التي منحت "أبا زكريا الحفصي" المبرر الشرعي للانفصال عن المركز الموحدي بمراكش.
- تحليل الجرأة السياسية للأمير "المستنصر بالله" في إعلان نفسه "خليفة للمسلمين" مستغلاً الفراغ الروحي بعد سقوط بغداد (656 هـ).
- التقييم الجيوسياسي لسياسة الانفتاح المتوسطي التي انتهجها الحفصيون، وقدرتهم على احتواء الحملة الصليبية الثامنة (حملة لويس التاسع 668 هـ).
- تتبع عوامل الهشاشة الداخلية (صراع الإخوة وانقسام بجاية وتونس، وتغول الأعراب) التي مهدت لسقوط الدولة في فخ الصراع العثماني-الإسباني.

2. مقدمة المحاضرة:

بعد الهزيمة الكارثية للموحدين في "معركة العقاب" (609 هـ)، تفككت الأوصال الجغرافية للإمبراطورية العظمى. وفي ولاية إفريقية (تونس الحالية وما والاها)، استطاع واليها الشاب "أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص" (سليل الشيخ أبي حفص عمر، أحد كبار رجالات ابن تومرت) أن يضبط الانفلات الأمني ويعيد للدولة هيبتها. ولما أقدم الخليفة الموحدي "المأمون" بمراكش على خطوة انتحارية تتمثل في التبرؤ من عقيدة "المهدوية"، وجد أبو زكريا فرصته الذهبية لإعلان الاستقلال التام سنة 625 هـ، مقدماً نفسه كحامٍ أصيل للإرث التومرتي. لقد شكلت الدولة الحفصية قوة استقرار جيوسياسي في الحوض الغربي للمتوسط، ووازنت بين دبلوماسية المعاهدات مع الجمهوريات الإيطالية، وبين الصمود أمام الحملات الصليبية، قبل أن ينهشها الانقسام الداخلي والتدخلات الأجنبية في مطلع العصر الحديث.

3. العناصر الأساسية:

أ. التأسيس والقطيعة الأيديولوجية (أبو زكريا الحفصي 625-647 هـ):

تولى أبو زكريا الحفصي ولاية إفريقية سنة 623 هـ في ظرف شديد الحرج، حيث كانت القبائل العربية (بنو سليم) ويحيى بن غانية يعيثون فساداً في البلاد، وبفضل حنكته

العسكرية، تمكن من سحق التمردات وتأمين حواضر إفريقية .جاء المنعرج الحاسم سنة 625 هـ (1228 م)، عندما أصدر الخليفة الموحدي "المأمون" من مراكش مرسوماً يُسقط فيه اسم "المهدي بن تومرت" من الخطبة والعملة، ويُكفّره صراحة[1].

اعتبر أبو زكريا هذا المرسوم "خيانة للشرعية الموحدية" الموروثة، فاستغله بذكاء كبير ليعلن الانفصال السياسي عن مراكش، مبقياً على اسم المهدي في الخطبة، ومؤسساً لدولة مستقلة تمتد من طرابلس شرقاً إلى بجاية غرباً[2]، وقد بلغ من قوته أن اعترف أمراء الأندلس (كابن هود وابن الأحمر) والمغرب الأوسط بسيادته الروحية والسياسية المؤقتة.

ب. ادعاء الخلافة العظمى واحتواء الصليبيين (المستنصر بالله):

خلف "محمد المستنصر بالله" والده سنة 647 هـ، وشهد عهده ذروة المجد الحفصي، ففي سنة 650 هـ، وبجرأة سياسية غير مسبوقة، تلقب المستنصر بـ "أمير المؤمنين" مدعياً الخلافة الكبرى[3]، مستفيداً من الضعف الشديد لخلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، وتكرست هذه الشرعية بشكل مطلق بعد سقوط بغداد في يد المغول (656 هـ / 1258 م) ومقتل آخر الخلفاء العباسيين[4]، حيث بايعه شريف مكة[5] وحتى حكام مصر المماليك لفترة وجيزة كخليفة وحيد للمسلمين.

على الصعيد الخارجي، واجه المستنصر امتحاناً استراتيجياً كبيراً حين رست سفن الحملة الصليبية الثامنة بقيادة ملك فرنسا "لويس التاسع" (سان لويس) على سواحل قرطاج سنة 668هـ (1270م)، وأدار المستنصر الأزمة بعبقرية مزدوجة: المقاومة العسكرية وحرب الاستنزاف، متزامنة مع تفشي وباء الطاعون في المعسكر الفرنسي والذي أدى لوفاة الملك لويس نفسه، وقد انتهت الحملة بتوقيع معاهدة صلح (معاهدة تونس 1270 م) التي تضمنت انسحاب الصليبيين ودفع المستنصر غرامة مالية ضخمة، قدرها مائتان وعشرة آلاف أوقية من الذهب[6].

---

[1] روبار برنشفيك، *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15)*، ترجمة الساحلي، حمادي (دار الغرب الإسلامي، *1988*)، *ج1*، ص *50*.

[2] ابن قنفد القسنطيني *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*، تحقيق: محمد النيفر محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي، (الدار التونسية للنشر, 1968)، ص ص 107-108.

[3] Sébastien Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, Islamic History and Civilization: Studies and Texts (Brill, 2022), 188:p 157.

[4] أبو عبد الله محمد الزركشي، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، تحقيق: ماضور، محمد (المكتبة العتيقة، 1966)، ص 37.

[5] الزركشي، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، ص 34.

[6] Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, 188 : p 468.

ج. الانفتاح التجاري والمعاهدات المتوسطية:

أدرك الحفصيون أن بقاء دولتهم مرهون بالاندماج في الدورة الاقتصادية للبحر المتوسط. لذا، تبنوا دبلوماسية تجارية منفتحة مع القوى الأوروبية المسيحية (أراغون، بيزا، جنوة، والبندقية)، وقد تم توقيع سلسلة من المعاهدات التجارية التي تضمن حرية الملاحة، وتأسيس "فنادق" (محطات تجارية وقنصليات) للتجار الأوروبيين في تونس وبجاية، وقد أدى هذا الانفتاح إلى تدفق هائل للثروات، وتحويل الموانئ الحفصية إلى شرايين رئيسية للتجارة العابرة للصحراء (الذهب والرقيق) نحو أوروبا، مما موّل النهضة العمرانية وبناء المدارس والمستشفيات، وجعل تونس إحدى أهم حواضر المتوسط[1].

د. الانشطار المجالي، تغول الأعراب، والسقوط التراجيدي:

رغم هذا المجد، حملت البنية الحفصية تناقضات أدت إلى تآكلها المستمر، فبعد وفاة المستنصر، دخلت الأسرة الحفصية في حروب أهلية طاحنة أدت مراراً إلى انشطار الدولة جغرافياً إلى شقين: مركز في تونس ومركز موازٍ ومعارض في بجاية، حيث استغلت القبائل العربية البدوية (التي عُرفت محلياً بـ "الذواودة" وغيرها) هذا الانقسام لتفرض نفسها كقوة عسكرية ومالية "موازية" تبتز الأمراء وتتحكم في تعيينهم[2]، ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)، باتت الدولة الحفصية هيكلاً فارغاً وعاجزاً عن حماية السواحل من الغزو الإسباني، وللحفاظ على عروشهم، ارتمى أواخر السلاطين الحفصيين (كالحسن بن محمد) في حضن الإمبراطور الإسباني "شارلكان"، مما أفقدهم آخر معاقل الشرعية.

وفي سنة 1574 م (982 هـ)، أرسل العثمانيون حملة بحرية بقيادة سنان باشا، أسقطت تونس وطردت الإسبان، وأنهت حكم سلالة الحفصيين نهائياً لتصبح إفريقية "إيالة عثمانية[3].

4. الخلاصة:

شكلت الدولة الحفصية جسر العبور التاريخي للغرب الإسلامي من "عصر الإمبراطوريات الموحدية" إلى "عصر الإيالات العثمانية"، لقد أثبت الحفصيون مرونة استثنائية في البقاء، فوظفوا الشرعية الروحية التومرتية في البداية، وتكيفوا مع البراغماتية التجارية المتوسطية لاحقاً، إلا أن فشلهم في دمج القبائل العربية في منظومة الدولة المركزية، وتكرار الانشطار

---

[1] برنشفيك، *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15)*، ص 263-268.

[2] Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, 188 : p 178.

[3] Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, 188 : p 186.

الجغرافي (تونس/بجاية)، جعلهم أعجز من الصمود أمام التحولات الكبرى التي عصفت بالمتوسط في القرن السادس عشر، ليدفعوا ثمن التردد في خضم الصراع بين الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. كيف وظّف "أبو زكريا الحفصي" قرار الخليفة الموحدي "المأمون" بالتبرؤ من ابن تومرت لخلق شرعية سياسية وروحية تبرر انفصال إفريقية؟
2. ناقش الأبعاد الجيوسياسية والعوامل الظرفية التي مكنت السلطان "المستنصر بالله" من ادعاء "الخلافة الإسلامية الكبرى" ومبايعته من قبل شريف مكة والمماليك.
3. حلل المفارقة التاريخية في السياسة الحفصية: بين قدرة المستنصر على دحر الحملة الصليبية الثامنة (لويس التاسع)، واضطرار أحفاده للارتماء في حضن الإسبان (شارلكان) بعد ثلاثة قرون.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن قنفد القسنطيني. *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*. تحقيق النيفر، محمد الشاذلي والتركي، التركي عبد المجيد. الدار التونسية للنشر، 1968.
2. الزركشي، أبو عبد الله محمد. *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*. تحقيق ماضور، محمد. المكتبة العتيقة، 1966.
3. برنشفيك، روبار. *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15)*. ترجمة الساحلي، حمادي. دار الغرب الإسلامي، 1988.
4. Garnier, Sébastien. *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*. 188 م. Islamic History and Civilization : Studies and Texts. Brill, 2022.

المحور الرابع: دول الوراثة الموحدية وتجذر الكيانات الإقليمية

المحاضرة (14) الدولة الزيانية:

1. أهداف المحاضرة:

- تحليل الظروف الجيوسياسية التي رافقت تفكك الإمبراطورية الموحدية وبروز عصبية قبائل "زناتة" (بنو عبد الواد) في المغرب الأوسط.
- استيعاب العبقرية السياسية والعسكرية للمؤسس "يغمراسن بن زيان" في إرساء دعائم الدولة وتثبيت عاصمتها "تلمسان."
- دراسة "عقدة الجوار" المتمثلة في الحصار المريني الطويل، وقدرة الزيانيين على الصمود وإعادة بناء دولتهم بعد كل اجتياح.
- إبراز الدور الاقتصادي المحوري لتلمسان كعقدة ربط لشبكات التجارة الصحراوية، وأثره في تمويل النهضة العمرانية والعلمية للدولة.

2. مقدمة المحاضرة:

شكّل المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) الحلقة الأضعف والأكثر تعقيداً في مرحلة تفكك الإمبراطورية الموحدية؛ فقد وجد نفسه محصوراً بين قوتين طموحتين :الحفصيين في الشرق (إفريقية) والمرينيين في الغرب (المغرب الأقصى)، وفي خضم هذا التجاذب، برزت العصبية الزناتية ممثلة في قبائل "بني عبد الواد" لتؤسس دولتها المستقلة وعاصمتها "تلمسان" مطلع القرن السابع الهجري .لقد تميزت "الدولة الزيانية" بظاهرة تاريخية استثنائية وهي "المرونة الجيوسياسية المطلقة"؛ فكانت تتعرض للاجتياح والحصار لسنوات طوال (كما حدث في حصارات المرينيين)، وتفقد عاصمتها، ثم سرعان ما تنبعث من رمادها لتعيد بناء نفسها .استمرت هذه الدولة لأكثر من ثلاثة قرون، محولة تلمسان إلى منارة علمية كبرى ومحطة أساسية للتجارة العابرة للصحراء، قبل أن ينهكها الصراع العثماني-الإسباني.

3. العناصر الأساسية:

التأسيس والعبقرية البراغماتية (يغمراسن بن زيان 633-681 هـ):

كان بنو عبد الواد (بطن من بطون زناتة) حلفاء للموحدين وعمالاً لهم على تلمسان. ومع بداية الوهن الموحدي، تولى زعامة القبيلة القائد الفذ "يغمراسن بن زيان "سنة 633

هـ (1236م)، حيث أدرك يغمراسن أن بقاءه يتطلب استقلالاً كاملاً، فقطع الدعاء للموحدين، وأعلن تأسيس الدولة الزيانية، لقد اتسم يغمراسن بواقعية سياسية نادرة؛ فقد ركز على بناء جيش نظامي قوي (مستعيناً بالمرتزقة المسيحيين والقبائل العربية كبني عامر) لضرب خصومه الداخليين، ولتجنب الصدام المبكر مع جيرانه الأقوياء، كان يوازن في علاقاته بين الحفصيين والمرينيين، ولا يتوانى عن عقد الصلح متى أدرك اختلال ميزان القوى، وبفضل سياسته، تحولت تلمسان من مجرد ولاية حدودية إلى عاصمة محصنة لدولة مركزية قوية[1]، حيث يصف المؤرخ يحي بن خلدون (مؤرخ الدولة الزيانية) يغمراسن قائلاً :*كان شجاعا، فاضلا، حليما... وهو أول من خلط زي البدلوة بأبهة الملك*[1]."

ب. عقدة الجوار وحصارات الإفناء المرينية:

لم تكن مشكلة الزيانيين في الداخل، بل في جيرانهم "بني مرين" بالمغرب الأقصى، فقد اعتبر المرينيون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين، وكانوا يسعون لتوحيد الغرب الإسلامي، مما جعل تلمسان العقبة الأولى في طريقهم، وقد تعرضت تلمسان لحصارات مرينية كثيرة كادت تمحوها من الوجود، وكان من أبرزها الحصار الطويل الذي ضربه السلطان المريني "أبو يعقوب يوسف" واستمر ثماني سنوات كاملة (698-706هـ)[2].

خلال هذا الحصار، بنى المرينيون مدينة موازية خارج أسوار تلمسان أسموها "المنصورة"، ورغم شدة الجوع واستشهاد الأمير الزياني "عثمان بن يغمراسن"، صمد التلمسانيون بصورة أذهلت معاصريهم، حتى انتهى الحصار باغتيال السلطان المريني في معسكره[3]. كما تعرضت تلمسان لاجتياح آخر وسقوط فعلي في عهد السلطان المريني "أبي الحسن" (737هـ)، وظلت تحت الاحتلال لأكثر من عقد، إلا أن العصبية الزيانية ظلت حية في الصحراء، وعادت لتحرير العاصمة وإحياء الدولة على يد الأمير "أبو حمو موسى الثاني" (760هـ)، مما يعكس صلابة الجبهة الداخلية وقوة الانتماء الزياني[4].

ج. تلمسان: عقدة التجارة الصحراوية والنهضة العمرانية:

– عوضت الدولة الزيانية استنزافها العسكري بعبقرية اقتصادية؛ فقد سيطرت على شريان التجارة الأهم في عصرها: "طريق سجلماسة - توات - تلمسان" الذي يربط إفريقيا

---

[1] يحي ابن خلدون، *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد*. تحقيق عبد الحميد حاجيات (مؤسسة عالم المعرفة، 2011)، ج1، ص ص 225-226.

[2] أبو عبد الله التَّنسي، *تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان*. تحقيق محمود أغا بوعياد (موفم للنشر، 2011)، ص ص 133-134.

جنوب الصحراء (حيث الذهب والرقيق) بموانئ البحر المتوسط (كوهران وهنين) حيث التجار الأوروبيون، وقد أدى هذا الثراء التجاري إلى نهضة حضارية مبهرة، الأمر الذي حول تلمسان إلى "لؤلؤة المغرب الأوسط"[1]، واستقطبت بذلك المدينة كبار علماء العصر (كالأخوين ابن خلدون، وابن مرزوق الخطيب، وسيدي بومدين)، كما شُيدت فيها المآثر العمرانية الخالدة كالمدارس (المدرسة التاشفينية التي كانت آية في الزخرفة، والمدرسة اليعقوبية)، والمساجد، والقصور[2]، مما جعلها نداً لقرطبة وفاس وقرطاجنة في إشعاعها الفكري.

د. التدخلات الأجنبية والسقوط (التجاذب الإسباني – العثماني):

مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)، أصاب الهرم البنية الزيانية بسبب الصراعات الدموية بين الإخوة والأعمام على العرش، وقد تزامن هذا الضعف مع صعود التوسع الإسباني الذي احتل المرسى الكبير (1505م) ووهران (1509م) وتنس، وفرض حصاراً خانقاً على سواحل الدولة، ومن أجل الحفاظ على عروشهم، اضطر بعض الأمراء الزيانيين (كأبي عبد الله محمد) إلى توقيع معاهدات خضوع مذلة للإسبان ودفع الجزية لهم، وقد أفقد هذا الخضوع السلالة الزيانية شرعيتها الدينية والشعبية، مما دفع علماء ووجهاء المغرب الأوسط إلى الاستنجاد بالإخوة "بربروس" (عروج وخير الدين) المدعومين من الدولة العثمانية. وبعد سلسلة من المعارك والتقلبات، دخلت القوات العثمانية تلمسان، وتم عزل آخر الأمراء الزيانيين "الحسن بن عبد الله" سنة 1554 م (962 هـ)، لتنتهي الدولة الزيانية ويُدمج المغرب الأوسط ضمن "إيالة الجزائر" التابعة للباب العالي[3].

4. الخلاصة:

تمثل الدولة الزيانية أنصع تجسيد لـ "إرادة البقاء" في تاريخ الغرب الإسلامي، ورغم كونها كانت محصورة جغرافياً وعسكرياً بين كيانات أقوى منها (المرينيين والحفصيين)، إلا أن براعة مؤسسيها في استخدام الدبلوماسية، وصلابة عصبيتها الزناتية، واستثمارها الذكي في خطوط التجارة الصحراوية، مكنها من الاستمرار لثلاثة قرون. لقد تركت الدولة الزيانية إرثاً حضارياً وعمرانياً جسّد الهوية المستقلة للمغرب الأوسط، قبل أن تضطر للانسحاب من مسرح التاريخ أمام ظهور قوى العصر الحديث العظمى (الإسبان والعثمانيين).

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

---

[1] Abun-Nasr, *A History of the Maghrib in the Islamic Period*, p 138.

[2] Jennifer Vanz, *L'invention d'une capitale : Tlemcen (VIIe-XIIIe/IXe-XVe siècle)* (Éditions de la Sorbonne, 2020), p 298, https://doi.org/10.4000/books.psorbonne.86907.

[3] عبد العزيز فيلالي، *تلمسان في العهد الزياني: دورها السياسي والثقافي* (موفم للنشر، 2002)، ج2، ص ص 78-80.

1. حلل الأسباب الجيوسياسية والعسكرية التي جعلت الدولة المرينية تصرّ إصراراً عقائدياً على محاولة اجتياح الدولة الزيانية، وكيف نجحت تلمسان في الصمود لثماني سنوات (حصار أبي يعقوب يوسف)؟
2. كيف استثمرت الدولة الزيانية "الموقع الوسيط" للمغرب الأوسط لتحويل تلمسان إلى قطب تجاري قاري يربط الصحراء الكبرى بأوروبا المتوسطية؟
3. استنتج العلاقة بين "التدهور الأخلاقي والصراع على العرش" أواخر العهد الزياني، وفقدانهم للشرعية الشعبية التي مهدت لدخول الإسبان ثم العثمانيين.

الهوامش والمراجع المعتمدة:

1. ابن خلدون، يحيى. *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد*. تحقيق حاجيات، عبد الحميد. مؤسسة عالم المعرفة، 2011.
2. التَّنسي، أبو عبد الله. *تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان*. تحقيق بوعياد محمود أغا. موفم للنشر، 2011.
3. فيلالي، عبد العزيز. *تلمسان في العهد الزياني: دورها السياسي والثقافي*. موفم للنشر، 2002.
4. Abun-Nasr, Jamil M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period*. Cambridge University Press, 1987.
5. Vanz, Jennifer. *L'invention d'une capitale : Tlemcen (VIIe-XIIIe/IXe-XVe siècle)*. Éditions de la Sorbonne, 2020. https://doi.org/10.4000/books.psorbonne.86907.

المحور الرابع: دول الوراثة الموحدية وتجذر الكيانات الإقليمية

المحاضرة (15) الدولة المرينية:

1. أهداف المحاضرة:

- تحليل الصعود السياسي والعسكري لقبائل "زناتة" (بنو مرين) على أنقاض الإمبراطورية الموحدية بالمغرب الأقصى.
- دراسة إشكالية "الفراغ الأيديولوجي" وكيف عوّض المرينيون غياب "الدعوة الدينية" بتأسيس شبكة "المدارس" ورعاية التصوف لشرعنة حكمهم.
- التقييم الاستراتيجي لـ "هاجس التوحيد الإمبراطوري" لدى المرينيين، وتداعيات محاولاتهم المستمرة لاجتياح المغرب الأوسط وإفريقية.

2. مقدمة المحاضرة:

بخلاف الحفصيين الذين ورثوا شرعية مؤسساتية في إفريقية، والزيانيين الذين اكتفوا بحماية مجالهم الحيوي في المغرب الأوسط، حملت "الدولة المرينية" في المغرب الأقصى طموحاً وريثاً لعقلية الإمبراطورية الموحدية. فقد انطلق بنو مرين (وهم بطن بدوي من زناتة) من هوامش الصحراء الشرقية للمغرب الأقصى، واستغلوا الانهيار التدريجي للسلطة الموحدية ليزحفوا نحو الحواضر. تميزت التجربة المرينية بمفارقة تاريخية كبرى: فهي الدولة الوحيدة في الغرب الإسلامي الوسيط التي قامت دون "دعوة دينية مسلحة" (لا رباط لمتوني ولا مهدوية تومرتية)، مما دفع سلاطينها إلى ابتداع آليات "شرعية بديلة" تمثلت في التحالف مع فقهاء المالكية، وبناء المدارس الفخمة، واحتضان "الأشراف". ورغم بلوغهم ذروة المجد العسكري بتوحيد الغرب الإسلامي مؤقتاً في عهد أبي الحسن، إلا أن التوسع المفرط كان مقبرة لطموحاتهم.

3. العناصر الأساسية:

أ. التدرج العسكري وإسقاط الموحدين (من البادية إلى فاس):

لم تكن سيطرة بني مرين انقضاضاً مفاجئاً، بل امتدت لعقود من حرب العصابات والاستنزاف ضد الجيوش الموحدية المنهكة، وتحت قيادة أميرهم "أبو يحيى بن عبد الحق"، تمكن المرينيون من دخول مكناس ثم العاصمة العلمية فاس سنة 646هـ (1248م)، متخذين منها قاعدة عسكرية وسياسية صلبة، غير أن الضربة القاصمة

والنهائية للمشروع الموحدي جاءت على يد السلطان القوي "أبو يوسف يعقوب"، الذي زحف نحو العاصمة الموحدية مراكش، واقتحمها سنة 668هـ (1269م)[1]، قاتلاً آخر خلفاء الموحدين (أبا دبوس)[2]، وبهذا السقوط، دان المغرب الأقصى بأسره للسيادة المرينية، وتحولت فاس رسمياً إلى العاصمة الكبرى للدولة، حيث أسس فيها أبو يوسف مدينة "فاس الجديد 674هـ، لتكون مقراً للمخزن الإداري والعسكري المريني[3].

ب. **هاجس التوحيد الإمبراطوري والتمدد شرقاً (ذروة المجد والانكسار) :**

اعتبر السلاطين المرينيون أنفسهم الورثة الشرعيين للمجال الجغرافي الموحدي بأكمله، مما جعلهم في حالة حرب شبه دائمة مع جيرانهم، وقد تجسد هذا الطموح الإمبراطوري في أوضح صوره خلال عهد السلطان "أبي الحسن المريني "المُلقب بالسلطان الأكحل[4]، وقاد أبو الحسن آلة عسكرية ضخمة، فتمكن من اجتياح تلمسان وإسقاط الدولة الزيانية (سنة 737هـ)[5]، ولم يكتفِ بذلك، بل استغل الصراعات الداخلية في إفريقية ليزحف نحو تونس ويُسقط الدولة الحفصية سنة 748هـ[6]. للحظة تاريخية وجيزة، أعاد أبو الحسن توحيد الغرب الإسلامي بأسره من المحيط إلى طرابلس[7]، إلا أن هذا التوسع الجغرافي المفرط فاق القدرة الديموغرافية والتنظيمية لزناتة؛ فسرعان ما ثارت القبائل العربية البدوية في إفريقية، وألحقت بالجيش المريني هزيمة كارثية في "معركة القيروان "(أو مَرمَجانة) سنة 749هـ شكلت هذه الهزيمة بداية الانهيار السريع للإمبراطورية، حيث تمرد ابنه "أبو عنان" في فاس، وانبعثت الدولتان الزيانية والحفصية من جديد[8].

ج. الجهاد في الأندلس ومعركة طريف (نهاية التدخل المغاربي):

ورث المرينيون واجب الدفاع عن مملكة غرناطة (آخر معاقل الإسلام في الأندلس) ضد الزحف القشتالي. قاد السلطان "أبو يوسف يعقوب" عدة حملات جهادية (جوازات)

---

[1] J Abun-Nasr, *A History of the Maghrib in the Islamic Period*, p 103-104.

[2] Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, Islamic History and Civilization, p 285.

[3] Maya Shatzmiller, *The Berbers and the Islamic State: The Marīnid Experience in Pre-Protectorate Morocco* (Markus Wiener Publishers, 2000), p 60.

[4] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج2، ص 37.

[5] ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج7، ص 138.

[6] الزركشي، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، ص 83.

[7] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج2، ص 40.

[8] برنشفيك، *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي*، ص 199.

مظفرة، أوقفت المد المسيحي مؤقتاً (كمعركة الدون نونيو سنة 674 هـ)، غير أن نقطة التحول الاستراتيجية وقعت في عهد السلطان "أبي الحسن"، حين حشد جيشاً عرمرماً وعبر المضيق لمواجهة التحالف المسيحي الإيبيري. التقى الجمعان في "معركة طريف" **(Rio Salado)**سنة 741هـ (1340م)[1]، والتي أسفرت عن هزيمة مروعة ومجزرة في صفوف الجيش المريني، فُقدت فيها حتى عائلة السلطان، وتعتبر معركة طريف في التقييم الجيوسياسي "نقطة اللاعودة"؛ فقد أنهت للأبد التدخل العسكري النظامي لدول الغرب الإسلامي في الأندلس، وتركت مملكة غرناطة تواجه مصيرها المحتوم وحيدة، ومهدت لسيطرة البرتغاليين والإسبان على مضيق جبل طارق[2].

د. شرعية المؤسسات: رعاية الفقه وبناء "المدارس:

أمام غياب شرعية الحكم، ابتكر المرينيون نموذجاً جديداً لبناء الشرعية السياسية يعتمد على "رعاية المؤسسات السنية". فقد تصالحوا مع فقهاء المالكية (الذين همّشهم الموحدون)، وأغدقوا عليهم الأموال والأوقاف، وتجلت هذه السياسة في ظاهرة "بناء المدارس "(كمدرسة العطارين بفاس[3]، والمدرسة البوعنانية بنفس المدينة، ومدرسة الطالعة بمدينة سلا[4])؛ حيث كانت هذه المدارس السنية الفخمة تُستخدم كمراكز لتخريج النخب الإدارية والفقهية الموالية للمخزن المريني، كما تبنى المرينيون رعاية "الشرفاء" (آل البيت) واحتضنوا الزوايا الصوفية، مما خلق لهم حاضنة شعبية قوية عوّضت نقص الشرعية العقائدية التأسيسية، وجعلت من عاصمتهم فاس منارة علمية لا تضاهى في الغرب الإسلامي.

هـ. السقوط وبروز الوطاسيين (1415 م وما بعدها):

مع مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، دخلت الدولة المرينية مرحلة احتضار طويلة بسبب الصراعات الدموية على العرش وتدخل قادة الجيش، حيث استغل المسيحيون هذا الضعف، فقامت البرتغال بتوجيه ضربة استراتيجية قاصمة باحتلال مدينة "سبتة "سنة 1415م (818 هـ)[5]، لتنتقل المعركة لأول مرة إلى التراب المغاربي، وفي خضم هذا الانهيار، برزت عائلة "بني وطاس" (وهم فرع عمومة

---

[1] Abun-Nasr, *A History of the Maghrib in the Islamic Period*, p 110.

[2] Garnier, *Histoires hafsides : Pouvoir et idéologie*, 188 : p 178.

[3] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج2، ص 134.

[4] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج2، ص 135.

[5] أحمد بن خالد أبو الناصري، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، (دار الكتاب، 1997)، ج4، 110.

للمرينيين) كوزراء متحكمين في السلاطين الضعاف، وانتهى الأمر بقيام الوزير الوطاسي بالقضاء على آخر سلاطين بني مرين (سنة 1465م)، ليؤسس "الدولة الوطاسية" التي لم تكن سوى استمرار مشوه وضعيف للإرث المريني، عاجزة عن صد الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية[1].

4. الخلاصة:

تمثل الدولة المرينية حالة سياسية فريدة؛ فهي دولة بدوية استطاعت، بفضل الواقعية السياسية وبناء التحالفات العميقة مع العلماء والمؤسسات السنية، أن تحكم المغرب الأقصى لقرنين من الزمن دون ادعاء رسالة دينية مقدسة. ورغم إخفاقهم النهائي في تحقيق طموح "التوحيد الإمبراطوري" للغرب الإسلامي، وفشلهم في إنقاذ الأندلس بعد كارثة طريف، إلا أن إرثهم الحضاري المتمثل في المعمار الموريسكي وشبكة المدارس العتيقة، أسس لهوية ثقافية وحضرية لا تزال بصماتها واضحة في نسيج المغرب الأقصى حتى اليوم.

5. أسئلة للتقييم الذاتي:

1. حلل إشكالية "الشرعية السياسية" لدى المرينيين، مبيناً كيف وظفوا شبكة "المدارس" ورعاية الزوايا والشرفاء لتعويض غياب الدعوة الدينية التأسيسية.
2. كيف تقرأ التداعيات الجيوسياسية والعسكرية لانهزام السلطان أبي الحسن المريني في معركة "طريف" (بالأندلس) وفي معركة "القيروان" (بإفريقية) على طموحات التوحيد المرينية؟
3. استنتج العلاقة المباشرة بين الانهيار الداخلي للدولة المرينية أواخر عهدها، وبين بدء ظاهرة "الاحتلال الإيبيري (البرتغالي) للسواحل المغربية" انطلاقاً من سبتة 1415 م.

---

[1] حركات، *المغرب عبر التاريخ*، ج2، ص ص 169-171.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. *كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. م 6، تحقيق خليل شحادة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
2. الزركشي، أبو عبد الله محمد. *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*. تحقيق ماضور، محمد. المكتبة العتيقة، 1966.
3. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*. تحقيق الناصري، جعفر ومحمد. دار الكتاب، 1997.
4. برنشفيك، روبار. *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15)*. ترجمة الساحلي، حمادي. دار الغرب الإسلامي، 1988.
5. حركات، إبراهيم. *المغرب عبر التاريخ*. دار الرشاد الحديثة، 2000.
6. Abun-Nasr, Jamil M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period*. Cambridge University Press, 1987.
7. Garnier, Sébastien. *Histoires hafsides: Pouvoir et idéologie*. 188 م. Islamic History and Civilization: Studies and Texts. Brill, 2022.
8. Shatzmiller, Maya. *The Berbers and the Islamic State: The Marīnid Experience in Pre-Protectorate Morocco*. Markus Wiener Publishers, 2000.

خاتمة:

في ختام هذه الرحلة الأكاديمية عبر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تتجلى أمامنا صورة بانورامية بالغة التعقيد والعمق لمجال جغرافي وبشري لم يعرف الركود يوماً. لقد أثبتت دراسة هذه الحقبة الممتدة لثمانية قرون (من القرن الثاني إلى مطلع القرن العاشر الهجري) أن تاريخ المنطقة خضع لـ "دورة حيوية" متجددة؛ تتأرجح باستمرار بين "التجزئة الإقليمية" التي تفرضها العصبيات المحلية ووعورة التضاريس، وبين طموح "التوحيد الإمبراطوري" الذي تفرضه الضرورات الاستراتيجية والدعوات الدينية الكبرى. لقد كشفت المحاضرات الخمس عشرة لهذه المطبوعة عن جملة من الخلاصات التاريخية والجيوسياسية الكبرى:

1. **جدلية المذهب والسياسة** :لم تكن الصراعات في الغرب الإسلامي مجرد تنافس على الموارد، بل كانت "الدعوة الدينية" (سواء كانت سنية، خارجية، شيعية إسماعيلية، مهدوية، أو رباطية) هي الإسمنت الأيديولوجي الذي يحول التجمعات القبلية (كزناتة، صنهاجة، ومصمودة) إلى قوى سياسية قادرة على صناعة التاريخ.
2. **عبقرية التكيف وتصدير الأزمات:** برهنت الكيانات المغاربية على براعة فائقة في إدارة الأزمات؛ فمن استراتيجية "الجهاد البحري" الأغلبي لامتصاص غضب الجند، إلى مرونة "الحماديين والزيانيين" في نقل عواصمهم واستثمار عقد التجارة الصحراوية لضمان البقاء رغم الحصارات المدمرة.
3. **الأندلس كعمق استراتيجي وعبء عسكري:** ظلت العدوة الأندلسية بمثابة "المرآة العاكسة" لقوة الغرب الإسلامي؛ ففي عصور القوة (المرابطين والموحدين) شكلت الأندلس امتداداً جغرافياً وحضارياً، وفي عصور الضعف (الطوائف ودول الوراثة) تحولت إلى ساحة استنزاف مهدت لانتقال الخطر الإيبيري إلى السواحل المغاربية (ككارثة معركة طريف وسقوط سبتة).
4. **تشكل الخريطة الحديثة:** إن الصراع المرير الذي دار في أواخر العصر الوسيط بين دول الوراثة الموحدية الثلاث (الحفصيون في إفريقية، الزيانيون في المغرب الأوسط، والمرينيون في المغرب الأقصى) لم يكن مجرد حروب عبثية، بل كان "مخاضاً جيوسياسياً" أفرز بشكل شبه نهائي الكيانات الثلاثة الكبرى التي ستعرف لاحقاً بـ (تونس، الجزائر، والمغرب) عشية العصر الحديث.

ختاماً، إن تاريخ الغرب الإسلامي ليس فصولاً أُغلقت، بل هو "مختبر حي" للباحثين والمؤرخين. وأملنا أن تكون هذه المطبوعة قد أسست لدى طالب الماستر قاعدة معرفية ومنهجية صلبة، تُمكّنه من تجاوز القراءة السطحية للأحداث، للانخراط في البحث الأكاديمي الرصين؛ تحقيقاً وتمحيصاً ونقداً، في تراثٍ لا يزال يزخر بالمخطوطات والقضايا التي تنتظر من يُنطقها بحياد وموضوعية.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في المطبوعة:

أولاً: المصادر الأساسية:

- ابن أبي زرع الفاسي. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972 .
- ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ط 1. دار الكتب العلمية، 1987 .
- ابن خلدون، عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. م 4 وم 6 وم 7، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000 .
- ابن خلدون، يحيى. بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق حاجيات عبد الحميد، مؤسسة عالم المعرفة، 2011 .
- ابن الصغير المالكي. أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، 1986 .
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمان. فتوح مصر والمغرب. سلسلة الذخائر 22 و49، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1999 .
- ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ط 3، تحقيق ج. س. كولان وإيفاريست ليفي بروفنسال، دار الثقافة، 1983 .(وكذلك القسم الخاص بالموحدين، تحقيق الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، 1985) .
- ابن القنفد القسنطيني. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تحقيق النيفر، محمد الشاذلي والتركي عبد المجيد، الدار التونسية للنشر، 1968 .
- ابن وردان. تاريخ مملكة الأغالبة. تحقيق محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، 1988 .
- البكري، أبو عبيد. المسالك والممالك. تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، 1992 .
- البيدق، أبو بكر بن علي. أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971 .
- التنسي، أبو عبد الله. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تحقيق بوعياد محمود أغا، موفم للنشر، 2011 .

- الحميري، محمد بن عبد المنعم. الروض المعطار في خبر الأقطار. ط 2، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1984 .
- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد. طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، 1974 .
- الرقيق القيرواني، أبو إسحاق. تاريخ إفريقية والمغرب. ط 1، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، 1994 .
- الزركشي، أبو عبد الله محمد. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تحقيق ماضور، محمد، المكتبة العتيقة، 1966 .
- الشباط، ابن الكردبوس وابن. تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان. تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، 1971 .
- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد. كتاب السير. ط 2، تحقيق أحمد بن سعيد السيابي، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1992 .
- عبد الواحد المراكشي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، 1994 .
- القاضي النعمان. افتتاح الدعوة. ط 2، تحقيق الدشراوي فرحات، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986 .
- المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1968 .
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق الناصري جعفر ومحمد، دار الكتاب، 1997 .
- النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. م 24، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، 1997 .
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. كتاب البلدان. ط 1، تحقيق محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، 2022 .

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

- إسماعيل عبد الرزاق، محمود. الأدارسة في المغرب الأقصى: حقائق جديدة. مكتبة مدبولي، 1991 .

- إسماعيل عبد الرزاق، محمود. الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. ط 2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985 .
- الباروني، سليمان باشا. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. دار الحكمة، 2005 .
- بحاز، إبراهيم بكير. الدولة الرستمية (160 - 296هـ / 777 - 909م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. ط 2، جمعية التراث، 1990 .
- برنشفيك، روبار. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15). ترجمة الساحلي حمادي، دار الغرب الإسلامي، 1988 .
- بورويبة، رشيد. الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. ديوان المطبوعات الجامعية، 1977 .
- حركات، إبراهيم. المغرب عبر التاريخ. دار الرشاد الحديثة، 2000 .
- روجي إدريس، هادي. الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في العهد الزيري من القرن 10 إلى القرن 12. ترجمة الساحلي حمادي، دار الغرب الإسلامي، 1992 .
- زغلول، عبد الحميد سعد. تاريخ المغرب العربي: الجزء الثاني (تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين) والجزء الثالث (الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين). منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت .
- عباس نصر الله، سعدون. دولة الأدارسة في المغرب: عصر القوة والانتشار (172 - 375 هـ / 788 - 985 م). دار النهضة العربية، 1987 .
- عبد العزيز سالم. تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة، 1999 .
- عنان، محمد عبد الله. دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول، القسم الأول: من الفتح إلى بداية عهد الناصر. ط 4، مكتبة الخانجي، 1997 .
- فيلالي، عبد العزيز. تلمسان في العهد الزياني: دورها السياسي والثقافي. موفم للنشر، 2002 .
- مختار العبادي، أحمد، وسيد عبد العزيز سالم. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. دار النهضة العربية، 1969 .

- مؤنس، حسين. فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م). الشركة العربية للنشر والتوزيع (العصر الحديث) ودار المناهل، 2002 .
- مؤنس، حسين. فتح العرب للمغرب. مكتبة الثقافة الدينية، د.ت .
- مؤنس، حسين. معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار الرشاد، 2000 .

ثالثاً: الرسائل الجامعية

- برناوي، وفاء يعقوب جبريل. "دولة بني مدرار الصفرية بالمغرب الأقصى الإسلامي: دراسة تاريخية حضارية (140 - 347هـ / 757 - 958م)". رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2003 .

رابعاً: المقالات العلمية

- مكي، محمود علي. "التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف". صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، ج 2، عدد 1-2، 1954 .

خامساً: المراجع والمقالات الأجنبية

- Abun-Nasr, Jamil M. *A History of the Maghrib in the Islamic Period*. Cambridge University Press, 1987.
- Ahmad, Aziz. *A History of Islamic Sicily*. Edinburgh University Press, 1975.
- Bennison, Amira K. *The Almoravid and Almohad Empires*. Edinburgh University Press, 2016.
- Davis-Secord, Sarah C. *Where Three Worlds Met: Sicily in the Early Medieval Mediterranean*. Cornell University Press, 2017.
- Garnier, Sébastien. *Histoires hafsides: Pouvoir et idéologie*. Islamic History and Civilization: Studies and Texts, Vol. 188. Brill, 2022.
- Shatzmiller, Maya. *The Berbers and the Islamic State: The Marinid Experience in Pre-Protectorate Morocco*. Markus Wiener Publishers, 2000.
- Vanz, Jennifer. *L'invention d'une capitale: Tlemcen (VIIe-XIIIe/IXe-XVe siècle)*. Éditions de la Sorbonne, 2020.

فهرس المحتويات:

مقدمة:.. *2*

المحاضرة 01: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب (الدوافع، المراحل، والصعوبات) *4*

المحاضرة 02: الفتح الإسلامي للأندلس.. *8*

المحاضرة 03: عصر الولاة في بلاد المغرب الإسلامي (التنظيم الإداري والتمردات الكبرى).*12*

المحاضرة 04: إمارات التأسيس المبكر (دولة بني صالح بنكور - دولة بني مدرار بسجلماسة- إمارة برغواطة في تامسنا)... *16*

المحاضرة 05: الدولة الرستمية (160هـ - 296 هـ / 776 م - 909 م)............................ *24*

المحاضرة (06) الدول العلوية المستقلة (الدولة الإدريسية والإمارات السليمانية) *33*

المحاضرة (07) دولة الأغالبة بإفريقية (184-296هـ):... *41*

المحاضرة (08) الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (297-361هـ): *52*

المحاضرة (09) الدولة الزيرية (362-547هـ): *61*

المحاضرة (10) الدولة الحمادية (362-547هـ):.. *65*

المحاضرة (11) دولة المرابطين: *69*

المحاضرة (12) دولة الموحدين:.. *73*

المحاضرة (13) الدولة الحفصية: *77*

المحاضرة (14) الدولة الزيانية:... *81*

المحاضرة (15) الدولة المرينية:.. *85*

خاتمة *90*

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في المطبوعة:... *92*

فهرس المحتويات: *96*